الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة ابن خلدون – تيارت
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم : العلوم الإنسانية تخصص : فلسفة عامة

مذكرة لنيل شهادة الماستر في الفلسفة ، الموسومة بـــ :

# محورية القرآن الكريم
# في البناء الحضاري عند مالك بن نبي

**إعداد الطالبة :**
**صافا ماجدة**

**إشراف الأستاذة :**
**خديجة بلخير**

لجنة المناقشة
أ. حاجة بن ناصر ..... رئيسا
د. خديجة بلخير ..... مشرفا
أ. محمد بوروينة ..... مناقشا

**السنة الجامعية 1437-1438 هـ/ 2016 – 2017 م**

# شكر

الحمد لله نحمده و نشكره ونتوكل عليه و نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ومن شر كل ذي شأن ولأن العرفان من الصفات الحميدة فنحن نقدم الشكر للأستاذة الفاضلة " بلخير خديجة " التي كانت متفهمة لأبعد الحدود ولا ننسى تشكراتنا إلى كل من ساهم في إنجاز هذا العمل من بعيد أو قريب ومهما أطلنا فلن نوفي بجميع الحقوق من الثناء و الاحترام.

# الإهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى أمي الشمعة التي احترقت من أجل أن تضيء لي الطريق

والى أبي الذي طالما حلم بي حاملة لأرقى الشهادات و صيرني أتحدى الصعاب

إلى سندي و ركيزتي في الحياة أخي " ناصر"

إلى من أنار لي الدنيا أخي "كادي"

وإلى من اختارني شريكة حياته خطيبي "رشيد "

# الـــفـهـــرس

**شكر**.....1

**إهداء** .....2

**مقدمة** .....3-6

**الفصل الأول : القرآن الكريم وخصائصه**

**المبحث الأول :** مفهوم القرآن الكريم ومكانته في التراث الإسلامي

مفهوم القرآن الكريم .....11-15

مكانة القرآن الكريم في التراث الإسلامي.....16-22

**المبحث الثاني** : الفرق بين القران الكريم و النصوص الدينية الأخرى .....23-31

**المبحث الثالث** : مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم .....32-39

**الفصل الثاني : الظاهرة القرآنية وعلاقتها بالحضاري عند مالك بن نبي**

**المبحث الأول** : مفهوم الظاهرة القرآنية .....41-47

**المبحث الثاني** : علاقة الظاهرة القرآنية بالحضارة .....48-57

**المبحث الثالث:** علاقة الظاهرة القرآنية بالذات المحمدية .....58-87

**الفصل الثالث :القرآن الكريم ودوره في البناء الحضاري**

**المبحث الأول** : شروط النهضة عند مالك بن نبي ..... 89-99

**المبحث الثاني** : القيمة الاجتماعية و الحضارية للقرآن الكريم .....100-106

**المبحث الثالث** : مبحث نقدي .....108-113

**الخاتمة** .....105-118

**قائمة المصادر و المراجع**

**مقدمة**

**مقدمة**

بعد أن كانت المجتمعات العربية في قمة تطورها قديما ،عرفت إنحطاطا حضاريا وذلك الإنحطاط الحضاري الذي عرفته نتيجة التدهور في جميع الميادين و على جميع المستويات قد أحدث نوعا من الإضطراب في نفوس المثقفين والمفكرين و الدعاة الذين عاشوا في القرن العشرين ،وهناك قلة لم ينالوا حظهم من الدراسة و البحث ،ومن هؤلاء المفكر مالك بن نبي ،على الرغم مما له من ريادة في إثارة العديد من القضايا الفكرية ومشكلاتها ، فهو من القلائل الذين طرحوا مشكلات الحضارة المعاصرة من منظور إسلامي إلى جانب الطرق الأخرى الحديثة للحضارة كان له في كل ذلك أطروحاته و أفكاره التحليلية والتشخيصية المميزة ومصطلحاته الخاصة التي شاعت في السنوات الأخيرة ،فهو من العظماء الذين حملوا لواء الإصلاح و التغيير وتولوا مسؤولية البناء والتجديد الحضاري فكان بمثابة الطبيب المشخص لأمراض الأمة الإسلامية ،بحيث تطرق إلى مختلف الجوانب التي تعاني منها هذه المجتمعات من تخلف حضاري ، وقد قدم حلولا يمكن بها تجاوز هذه الحالة والإلتحاق بمصاف الأمم المتحضرة ،وإن الدارس لفكر مالك بن نبي سيكتشف أنه دون معاصريه من المسلمين قد أولى إهتماما كبيرا وعميقا للإنسان المسلم و لمشكلاته وأبعادها محللا ذلك و مقترحا حلولا في إطار إسلامي واضح ،ومن هنا نطرح الإشكالية بالصيغة التالية :

هل البناء الحضاري عند مالك بن نبي يرتكز أساسا على مبادئ القرآن الكريم و قيمه؟

ومن هذه الإشكالية الرئيسية تظهر مجموعة من الأسئلة الفرعية :

**مقدمة**

ماهو مفهوم الظاهرة القرآنية عند مالك بن نبي ؟وماهي مكانتها في المشروع النهضوي عنده ؟ وماهي الحلول التي يقدمها مالك بن نبي للأمة الإسلامية للخروج من دائرة التخلف؟

إن القيام بأي نشاط إنساني يستلزم وجود خلفيات ودوافع تحركه لتحقيق غايته ، وبحثنا هذا لا يخرج عن هذه القاعدة بحيث أن الدافع الأساسي لإختيارنا موضوع "محورية القرآن الكريم في البناء الحضاري عند مالك بن نبي "إنما يعود إلى فهمنا للفلسفة على أنها تلك الدراسات التي تنطلق من مشكلات الواقع من أجل خدمته و الرقي نحو الأفضل و ذلك بربطه بالدين الذي يمثل الغذاء الروحي للإنسان، وإذا كان التخلف والانحطاط الحضاري هو أعظم أزمة تتخبط فيها المجتمعات العربية الإسلامية وأكبر تحد تواجهه أمتنا ،فلماذا ننشغل بالترف الفكري الذي يخوض في مسائل ذاتية لا تسمن ولا تغني من جوع ولا تقدم حلولا لواقعنا المتخلف.

وهذه هي العوامل الموضوعية التي أدت بنا لإختيار هذا الموضوع أما العوامل الذاتية فتتمثل في النزعة الوطنية بصفة مالك بن نبي فيلسوف ومفكر جزائري كان همه إصلاح المجتمع و دفعه للتطور.

ولقد إعتمدنا في هذا البحث على المنهج التحليلي الإستنتاجي ،وذلك بتحليل أهم أفكار مالك بن نبي المتعلقة بموضوع بحثنا وحاولنا قدر الإمكان استخلاص النتائج المترتبة عن هذا التحليل و نقدها في ضوء العقيدة الإسلامية ، وقسمنا البحث إلى ثلاثة فصول مترابطة متكاملة إذ تناولنا في الفصل الأول القرآن الكريم و خصائصه، وقسمنا هذا الفصل إلى ثلاثة مباحث ، المبحث الأول كان عرضه ضبط مفهوم القرآن الكريم ومكانته في التراث الإسلامي فعرفنا القرآن

**مقدمة**

الكريم لغة و إصطلاحا ثم ذكرنا المكانة التي يحتلها في التراث الإسلامي بحيث يعتبر دستورا ومصدرا للمسلمين فهو نقلهم من طور البداوة ونظم حياتهم في مختلف جوانبها .

أما في المبحث الثاني فقد تطرقنا إلى الفرق بين القرآن الكريم و النصوص الدينية الأخرى ، أشرنا فيه إلى الإختلاف بين القرآن و التوراة و كذلك الإنجيل وكيف كان القرآن آخر الكتب المنزلة و بينا مواطن التحريف في الكتب السابقة و كذلك ذكرنا رأي مالك بن نبي في النص الديني القرآني الذي لم تمسه يد التحريف، وكيف يعتبر منطلقا للتغيير ،أما في المبحث الثالث والأخير فقد تطرقنا لمظاهر الإعجاز في القرآن الكريم أي كيف يعتبر القرآن الكريم آية للعالمين فذكرنا الإعجاز اللغوي فيه و أشرنا لمبادئه الأخلاقية و النفسية و الإجتماعية و التشريعية مما أدى لتأثيره الواسع في شبه الجزيرة العربية و خارجها .

أما بالنسبة للفصل الثاني فتطرقنا لأهمية الظاهرة القرآنية و مكانتها وقسمنا الفصل إلى ثلاثة مباحث ، المبحث الأول خاص بمفهوم الظاهرة القرآنية عند مالك بن نبي ففسرنا الدراسة التحليلية للنص القرآني عند مالك بن نبي أي فيما يتعلق بخصائص الظاهرة القرآنية و مميزاتها و ارتباطها إرتباطا وثيقا بالإنسان وكذلك دلائل صدقها و صحتها و فعاليتها في المجتمع أما في المبحث الثاني تناولنا علاقة الظاهرة القرآنية بالحضارة فمالك بن نبي جعل الظاهرة القرآنية بتأثيراتها النفسية و الإجتماعية سببا و شرطا لقيام الحضارة فمفهوم الحضارة عنده يرتكز على الفكرة الدينية كمركب أساسي ، وفي الفصل الثاني والأخير تناولنا علاقة الطاهرة القرآنية بالذات المحمدية فيستحيل فصل الظاهرة القرآنية عن الذات المكلفة بحملها و التي يمثلها محمد صلى الله

**مقدمة**

عليه وسلم وهنا أشرنا لمفهوم النبوة و مميزاتها و كيف كانت الذات المحمدية نموذجا يقتدي به الإنسان المسلم ليبني حضارة ويعيد مجده .

في الفصل الأخير و الذي يعتبر نتيجة منطقية للفصل السابق حاولنا من خلاله بيان دور القرآن الكريم في بناء الحضارة وقد قسمناه بدوره إلى ثلاثة مباحث ، المبحث الأول يبين شروط النهضة عند مالك بن نبي تطرقنا من خلاله للحلول و البدائل التي يطرحها بن نبي لتجاوز مختلف المعوقات و المشاكل التي تقف حاجزا أمام المحاولات النهضوية الحادة و كذا بينا أهم الأسس و المقومات التي يقوم عليها البناء الحضاري عند مالك بن نبي ،أما المبحث الثاني تناولنا فيه القيمة الإجتماعية و الحضارية للقرآن الكريم و كيف أن القرآن غير ونظم الحياة الاجتماعية التي بدورها ساهمت في البناء الحضاري وذلك أنه يعد تشريعا سماويا شاملا صالحا لكل زمان ومكان .ولكل المجتمعات مهما إختلفت مقوماتها ،أما المبحث الأخير فهو مبحث نقدي حاولنا فيه تقييم أفكار بن نبي و معرفة مدى صلاحيتها و كذا حدودها وهل فعلا لها آثار على الفرد والمجتمع وهل فعلا يمكن الأخذ بمشروع مالك بن نبي النهضوي و تطبيقه على أرض الواقع .

وحاولنا في الخاتمة استخلاص أهم النتائج المتوصل إليها في هذا البحث و الآفاق المستقبلية لها .

وكما أشرنا سابقا لا يوجد دراسة سابقة لموضوعنا في البحث أو شبيهة به ، لكن المكتبة العربية لا تخلو من مقالات و بحوث حول فكر مالك بن نبي نذكر منها مقال بعنوان " أسباب إنحطاط المسلمين ، دراسة في أفكار مالك بن نبي " بقلم إبراهيم البيومي غانم في مجلة منبر

**مقدمة**

الشرق لم يتجاوز أربع صفحات ، وكذلك مقال بعنوان "التغيير الإجتماعي عند مالك بن نبي و المجتمع الإسلامي المعاصر " حيث بلغ عشر صفحات للدكتور عمار طالبي و الكثير من البحوث تمس مشكلة الثقافة ، والقضايا الفكرية المعاصرة وموقف مالك بن نبي منها،أما بالنسبة للمذكرات فوجدنا رسالة ماجستير بعنوان "مالك بن نبي وموقفه من القضايا المعاصرة للباحث حسن موسى محمد العقبي بالجامعة الإسلامية بغزة ، 2005 فتناول الباحث موقف مالك بن نبي الحضارة وكان شبيها إلى حد ما بموضوعنا ،وكذلك وجدنا مذكرة بعنوان " المشروع النهضوي في فكر مالك بن نبي " للباحثة بوسعد سهيلة لنيل شهادة التعليم الثانوي بالمدرسة العليا للأساتذة ،الجزائر تناولت فيها أسس المشروع النهضوي عند مالك بن نبي وهذا يتداخل مع موضوع بحثنا ،أما بالنسبة للمصادر المتبعة فاعتمدنا على كتب مالك بن نبي ،الخاصة "بمشكلات الحضارة" وكان أهمها "الظاهرة القرآنية" ،تأملات "في مهب المعركة " ، وجهة العالم الإسلامي " ، مجالس دمشق " ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي " شروط النهضة " وحاولنا قدر الإمكان تقص أهم الأفكار المتعلقة بموضوعنا خاصة فيما يتعلق بالنص الديني و علاقته بمشروع مالك بن نبي الحضاري ، بحيث أن عقيدة هذا المفكر ترجع من حيث الأصول إلى السلفية حيث يطالب بالعودة إلى القرآن الكريم لدراسة آياته لتكون منهجا علميا في حياة المسلم المعاصر إن لم يتبع هو منهج السلف في الاستدلال على المسائل الفكرية و هذا كان لب موضوعنا وقد إعتمدنا على كتاب "الظاهرة القرآنية " لأنه يخدم موضوعنا أكثر من غيره ،أما بالنسبة للمراجع فكان أهم مرجع اعتمدنا عليه هو "البيان في علوم القرآن "لصاحبه عبد الرحمان بن عبد الرحمان ، ونشير من جهة أخرى إلى جملة الصعوبات التي حالت بيننا و البين الوصول إلى المنتهى ، كنقص التجربة

و الخبرة خصوصا لخصائص الموضوع و طبيعته العميقة الفلسفية ، بالإضافة إلى بعض الصعوبات المنهجية وقلة المادة العلمية و نتمنى أن يساهم بحثنا هذا و لو بقسط ضئيل في لفت الإهتمام لمشكلة التخلف الذي يعيشه بلدنا الجزائر ووطنا العربي عموما لكي تسخر الجهود من أجل تجاوز هذه المشكلة في المستقبل.

# الفصل الأول

## القران الكريم و خصائصه

### المبحث الأول : مفهوم القرآن الكريم و مكانته في التراث الإسلامي

### المبحث الثاني : الفرق بين القرآن الكريم والنصوص الدينية الأخرى

### المبحث الثالث: مظاهر الإعجاز في القرآن الكريم

## المبحث الأول : مفهوم القرآن الكريم ومكانته في التراث الإسلامي

### 1. مفهوم القرآن الكريم

#### أولا لغـــــة :

الفرق بعيد بين ما جاء على أنه إسم وما جاء منها على أنه وصف ويتضح ذلك على سبيل التمثيل من عد لفظ "قرآن" و لفظ "كريم" أخذا من قوله تعالى: ↓ إنه لقرآن كريم ↑ [1] وعد لفظ "مبارك " و" وذكر اعتمادا على قوله ↓ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ↑ [2] مع أن لفظ ذكر في الآيتين مقبولان لأنهما إسمان أما لفظ "كريم" ولفظ "مبارك" فغير مقبولين لأنهما وصفان[3] ويرى العلامة الألوسي في تفسيره أن أسماء القرآن كلها ترجع بعد التأمل الصادق إلى إسمين إثنين هما "الفرقان" و القرآن وهما الأصل فيهما جميعا و الواقع أن أغلب الأسماء التي ذكروها للقرآن ليست إلا صفات التنزيل كالهدى ، الشفاء، الرحمة ، الموعظة ، الحكمة والبركة [4].

واختلف العلماء في لفظ "قرآن" وكثرت أقوالهم وآراؤهم فيه، فروى عن الإمام الشافعي أنه إسم غير مشتق خاص بالكلام المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو معرف غير مهموز عنده ذهب إلى هذا الرأي جماعة من أهم العلماء، ونقل عن الأشعري

---

[1] – سورة الواقعة ، الآية : 77

[2] – سورة الأنبياء ، الآية 50

[3] – الصديق محمد الصالح ،البيان في علوم القران ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، د(ط)، 1994 ، ص: 37

[4] – المرجع نفسه ص: 37 – 38

وجماعته أنه مشتق من :قرنت الشيء بالشيء إذا ضممته إليه و سمي بهذا اللفظ "القرآن" السور ، الآيات ، الحروف فيه بعضها ببعض.

وعند اللحياني و جماعة من العلماء أن القرآن مصدر كالغفران والكفران و الخسران سمي به المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر فهو مرادف للقراءة و هذا قوله تعالى :

**↓ إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ↑**[1]

ولعل مما يرجح هذا الرأي إزدواج كلمتي "القرآن" "القراءة" ، في الكثير من الآيات القرآنية مما يجعلنا نرتاح إلى أن القرآن مشتق من القراءة قال تعالى **↓ وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يومنون حجابا مستورا↑** [2]

ويعارض بعض المستشرقين مثل شفللي في عربية لفظ قرآن ويرى فيها كلمة "قربان" السريالية وهي بمعنى القراءة أو المقروء[3].

**ثانيا :اصطلاحا**

بعث الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الناس بدين الإسلام، المتمثل في أصول إيمانية إعتقاديه وشرائع تعبدية علمية في نظم الحياة البشرية كلها، يقدمه لهم من خلال مصدرين مستمدين من علم الله هما القرآن الكريم والسنة الشريفة قولا أو فعلا أو تقريرا من النبي محمد صلى الله عليه وسلم وتلقى الصحابة من الرسول هذه التعاليم بوعيهم اللغوي الأعلى بالنسبة لمن بعدهم ثم تمثلوا هذه التعاليم في واقع حياتهم الفردية والاجتماعية .

[1] – سورة القيامة الآية : 16–19

[2] – سورة الإسراء ، الآية : 45

[3] – الصديق محمد الصالح ، المرجع السابق ص: 40 – 41

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى يقول تعالى ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه** ﴾ [1] فالقرآن كلام الله حقيقة حروفه ومعانيه لا تشبه كلام المخلوقين منزل غير مخلوق تكلم الله به ابتداء وأوحى إلى الروح الأمين جبريل فنزل به على قلب محمد صلى اله عليه وسلم مفرقا فقرأه على الناس قال تعالى:﴿ **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث** ﴾ [2]

وإذا تلاه الناس أو كتبوه في المصاحف أو حفظوه في الصدور لن يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله حقيقة ،فانّ الكلام ينسب حقيقة إلى من قاله مبتدئا لا إلى من قاله مبلغا.فالتلاوة غير المتلو ، و الكتابة غير المكتوب والحفظ غير المحفوظ وهكذا سائر التصرفات فالفعل فعل القارئ أو الكاتب أو الحافظ وهكذا فالكلام كلام البارئ[3].

إن القرآن الكريم هو دستور الله لعباده، فيه كل ما يحتاجونه لتنظيم حياتهم الدينية والدنيوية و التزود من ذلك لحياتهم الأخروية التي قسمت إلى نوعين:نوع مفلح و نوع خاسر.

فالنوع الفالح هم أهل الجنة الذين بالدستور القرآني هم يعملون

---

[1]- سورةالتوبة ، الآية :06

[2]- سورةالاسراء ، الاية: 106

[3]- القاضي احمد بن عبد الرحمان ، العقيدة الميسرة ،جامعة القصيم، ، ط (1)،2006 ، ص: 68

والنوع الخاسر هم أهل النار الذين رفضوا العمل بالدستور القرآني و عملوا بالدستور العلماني[1] .

وقد اعتبر القرآن فرضا لأنه يساهم في تنظيم الحياة في الدارين كما ذكرنا، و بدون دستور القرآن لا يمكن للناس أن يتعاشروا فيها باطمئنان، ولا أن ينالوا من طيبها و يطغى الناس و تحدث الفوضى بالمفاسد فيكون مثلهم كمثل البهائم لا بل أكثر بحيث لا يعرفون نافعا ولا ضارا [2].

والقرآن الكريم أحسن الحديث أنزله الله تعالى فعلى كل من آمن به يتحدث بأحسن الحديث في أمور الدنيا والدين، ويعلم كذلك أن القرآن اشتمل على أمر ونهي ووعد ووعيد وقصص ومجادلة وأمثال إذ لا غنى عنه[3] .

يعد القرآن كتاب المسلمين الأكبر ، ودستور البشرية الأعظم ووحي السماء ، فكان أعظم معجزة لأعظم نبي ، وأقل ما يوصف به هذا الكتاب أنه المعلم النصوح ، والمربي المخلص ، والمعيار الصحيح ، والحجة القاطعة ، والبرهان الساطع و النبراس الهادي[4].

وليس في وسع القلم أو اللسان مهما كانت مقدرته البيانية أن يحيط بشأن القرآن ووصف ما احتواه من الدقائق و الحقائق و الأسرار، إذ هو كتاب الدهر كله ، وما فرد جيل

[1]– الشيخ العكريمي حسن ،التبيان لمعرفة الفصل بين معاني الكفر و معاني الإيمان،دار الهدى ،الجزائر، د(ط) ،2007 ص:67

[2]– المرجع نفسه ص: 68

[3]– القاضي احمد بن عبد الرحمان ، العقيدة الميسرة ، المرجع السابق ص: 70

[4] – الصديق محمد الصالح ،البيان في علوم القران، المرجع السابق ، ص: 29

إلا ذرة في فضاء وما الجيل في زمن إلا لبنة في بناء و ما الزمن أو الدهر إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء[1] .

ووصفه فلاسفة الغرب وقادة الفكر الأجنبي في العالم ، فقالوا فيه ما لو جمع لكان مجلدا ضخما فهذا المستر ولز يقول « القرآن كتاب ديني علمي اجتماعي تهذيبي خلقي تاريخي حتى قيام الساعة» ، وهذا الكونت هنري د كاستري يقول « أتى محمد بالقرآن دليلا على صدق رسالته،وهو لا يزال إلى يومنا هذا سر من الأسرار التي تعذر فك طلاسمها ولن يسبر غور هذا السر المكنون إلا من يصدق بأنه منزل من عند الله» .[2]

ويقول توماس كاريل : « إني لا أحفل كثيرا بما جاء في القرآن من الصلوات و التحميد والتمجيد لأني أرى لها في الإنجيل شبيها ولكني شديد الإعجاب بالنظر الذي ينفذ إلى أسرار الأمور فهذا أعظم ما يلذني ويعجبني و هو ما أجده في القرآن و ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ».[3]

## 2. مكانة القران الكريم في التراث الإسلامي

[1] – المرجع السابق ، ص :35

[2] – المرجع نفسه ، ص : 35

[3] – المرجع نفسه ، ص:35

كان للإسلام أثر كبير في تغيير قيمة الأشياء و الأخلاق في نظر العرب ، فارتفعت قيمة أشياء وانخفضت قيمة أخرى، وأصبحت مقومات الحياة في نظرهم غيرها بالأمس، وقد لاقى النبي صلى الله عليه وسلم صعوبات كبرى في نقلهم من عقليتهم الجاهلية إلى عقليتهم الإسلامية نجدها مبسوطة في كتب السيرة .[1]

وإذا أردنا أن نتبين اثر القرآن الكريم في صورة أوسع و أوضح و في صورة ناطقة من واقع الحياة فلنعد إلى التاريخ نسأله عن الحياة الجاهلية، كانت فيها البشرية ضاربة في مهامه الضلالة تعاني الجهود الشاقة في صراعها مع الحياة، بعيدة عن نور القرآن الهادي وعن حياة إنسانية أشرق فيها نور القران [2].

ولو قدر لأحد أن يرى شبه الجزيرة العربية منذ أربعة عشر قرنا فماذا يرى ؟

وماذا كان يتوقع لذلك الجزء من العالم؟

كانت جميع معالم الحياة الفكرية والسياسية و الأخلاقية و الاجتماعية تنذر بسوء المصير و تدل من يراها لأول وهلة ، أن بقاء الإنسانية على تلك الحالة الشاذة لابد إن يفضي بها إلى التلاشي العاجل، وتريه أن تلك العقول الجامحة و القلوب المتحجرة و الفطرة

[1] – أمين أحمد ، فجر الإسلام ، دار أصالة ، الجزائر ، ط(1)، 2010 ، ص:92

[2] – الصديق محمد الصالح ، البيان في علوم القرآن ، المرجع السابق، ص: 261–262

الفاسدة لابد لها من صيحة توقضها تنفض عنها غبار الماضي غبار الوثنية الهمجية و العبودية ولابد لها من روح سماوية تردها عن غيها وتكبح جماحها[1].

وكان نزول القرآن إلى الدنيا كما قال أحد المفكرين المعاصرين كالضوء ينبثق في أعقاب الليل شيئا فشيئا فيبدد ظلمة الكون تدريجيا

وتمسك المسلمون بالقرآن فحفظوه وتأملوه وغاصوا على ما فيه من حقائق و ذخائر وأسرار ...، وطبقوه على أنفسهم وعلى ذويهم بدقة، لأنهم أدركوا انه دستور دينهم و أساس عقائدهم وشرائعهم و أنه أنزل لصالح الدنيا و الآخرة فأعزهم بعد ذل، وحررهم بعد عبودية وبدلهم بالضعف قوة و بالانحطاط رفعة وبعبادة الأوثان عبادة الله وانتظمهم في وحدة الإنسانية إخوان متحابين متراحمين.[2]

غير أن القرآن غيّر مفاهيم الألوهية لدى العرب فبعد أن كانت عقيدتهم الدينية تقوم على تعدد الآلهة وعبادة الأوثان و التقرب بها إلى الله جعلهم يخلصون إيمانهم وعبادتهم لله وحده وهو رب كل شيء[3].

لاشك أن هذه التعاليم رفعت المستوى العقلي للعرب إلى درجة كبرى فهذه الصفات التي وصف الإسلام بها الله نقلتهم من عبادة أصنام وأوثان وما يقتضيه ذلك من انحطاط في النظر و إسفاف في الفكر،إلى عبادة إله وراء المادة، كان الإله عند أكثرهم إله قبيلة وإن

[1]– الصديق محمد الصالح ، المرجع السابق ، ص: 262

[2] – المرجع نفسه ، ص:264

[3] – المرجع نفسه ، ص:266

اتسع سلطانه بإله قبائل أو إله عرب فأبانه الإسلام إله العالمين ومدبر الكون وبيده كل شيء وعالما بكل شيء[1].

وشيء آخر للإسلام كان له أثر كبير في الناحية العقلية وهو أنه سلك في دعوته إلى الإيمان بالله وصفاته من علم وقدرته ووحدانيته مسلكا يثير العقل وهو الدعوة إلى النظر إلى ما في العالم من ظواهر قال تعالى ↓ فلينظر الإنسان مما خلق ↑ [2] ،إلى الكثير من أمثال هذا ، هذا الضرب من الآيات يحث العقل على النظر في الكون ،وكان له أثر في نمو الحياة العقلية[3].

ولما فتحت البلاد كان العنصر العربي الحاكم فكان لابد أن يتعلم ويقرأ ويكتب فكثرت القراءة و الكتابة و خاصة في عهد التابعين ، كذلك هؤلاء الداخلون في الإسلام من غير العرب اضطروا إلى تعلم العربية لدينهم ولدنياهم حتى اضطروا لتعلم النحو لإصلاح لغتهم[4].

وإلى القرآن الكريم يعود الفضل في بقاء الوحدة الإسلامية يقول لدكتور طه حسين:

« والقرآن بعد هذا كله هو الذي حفظ اللغة العربية أن تذوب في اللغات الأجنبية التي تغلبت على اللغة العربية بحكم السياسة في عصور كثيرة وظروف مختلفة، فقد تفرقت كلمة المسلمين في السياسة وانحلت الخلافة العربية القديمة وخضع العرب لاستعمار الأعاجم

[1] – أمين احمد ، فجر الإسلام ، المرجع السابق ، ص: 170

[2] – سورة الطارق، الآية: 05

[3] – أمين احمد ، فجر الإسلام، المصدر نفسه، ص :170

[4] – المرجع نفسه ، ص: 169

حكمهم الفرس في دار الخلافة نفسهم ،وحكمهم الترك بعد ذلك قرونا متصلة وجاء العصر الحديث فخضع العرب لسلطان الأجنبي الأوربي، بقهرهم مرة بالاستعمار و الحكم المباشر لهم وبقهرهم مرة أخرى بالتفوق في الحضارة المادية و المعنوية جميعا، ويضطرهم إلى أن يتعلموا اللغات الأوربية إرضاءً لحكامهم من الأوربيين والتماسا لما في هذه اللغات من علم وأدب و فلسفة وفن ، وكان هذا كله جدير أن يمحق اللغة العربية محقا،ويذهب شخصية الشعوب العربية ،ولكن القرآن عصم هذه اللغة من الضياع وحال بين الخطوب الجسام وبين التأثير فيها،حرص العرب على القرآن لأنه يحفظ عليهم دينهم ولأنه قوام حياتهم فقرأه عامتهم وخاصتهم ، وحفظوا منه القليل و الكثير ودرسه علماؤهم في المساجد و المدارس واختلف إليهم ألوف كثيرة من الطلاب ، على تباعد الأمكنة والأزمنة واضطروا من أجل فهم القرآن و درسه في تعمق أن يدرسوا اللغة العربية »[1]

اللغة القرآنية التي تكتنز ثروات لهجية أدبية وتجسد عادات خطابية عربية فقد كانت أداة مرنة ومتفتحة وعادلة مع هذه الثورات اللهجية والأدبية إلى جانب تجسيدها لأشكال من التراكيب التي قد يعتريها الجاهل بالتفقه في اللغة القرآنية من الأشياء التي يجب أن يؤمن بها ولا يسال عنها ، مع أنها عادات خطابية عربية تترجم قوله↓ **إنا جعلناه قرآنا عربيا** [2]↑ إلى غير هذا من الآيات الأخرى التي تصف و تؤكد عروبة القرآن وقوله تعالى↓ **إنا جعلناه قرآنا**

[1] – الصالح محمد الصديق ، البيان في علوم القرآن ، المرجع السابق ، ص: 270

[2] – سورة الزخرف ،الآية :03

**عربيا لعلكم تعقلون** ↑ [1] واضح منه أنه يعني المضمون لأن القرآن آخر كتاب سماوي للعرب ولغير العرب ، أي أن مضمونه لكل العالمين في كل زمان و مكان وهذا لا يمنع أحدا من أن يتعلم لغته ، و لكن هذه اللغة مع ذلك تظل إلى الأبد عربية[2] .

الأحكام التي جاء بها الإسلام على نوعين أحكام يراد بها إقامة الدين و هذا يشمل أحكام العقائد و العبادات، وأحكام يراد بها تنظيم الدولة و الجماعة و تنظيم علاقات الأفراد والجماعات بعضهم ببعض، وهذه تشمل أحكام المعاملات و العقبات و الأحوال الشخصية و الدستورية و الدولية ...الخ فالإسلام يمزج بين الدين والدنيا وبين المسجد و الدولة فهو دين ودولة وعبادة وقيادة [3].

ومن تتبع آيات الأحكام في القرآن يجد كل حكم منها يترتب على مخالفته جزاءات جزاء دنيوي و جزاء أخروي، فقطع الطريق جزاؤه القتل و الصلب، و النفي عقوبة دنيوية والعذاب العظيم عقوبة أخروية، فالقرآن الكريم يحتوي أحكاما تنظيمية فهو دستور للحالتين الدنيا و الآخرة.

ثم شرح أحكاما في الزواج والطلاق والشؤون المدنية و الجنائية، كانت قانونا نظم أمور المسلمين في معيشتهم الاجتماعية والاقتصادية و إتخذه الفقهاء و المشرعون مرجعهم

---

[1] – سورة الزخرف، الآية : 03

[2]– مرتاض عبد الجليل،اللسانيات الجغرافية في التراث اللغوي العربي،دار هومة ،الجزائر، د(ط) ، 2000، ص : 165 – 166

[3] – عودة الشهيد عبد القادر ، الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه، ، الكويت ، ط(5)، 1985 ،ص:08

يستنبطون منه الأحكام ويستهدونه فيما يعرض من حوادث جديدة خلقتها مدينتهم فكان ذلك أساسا لحركة تشريعية واسعة [1].

تعرض القرآن في آيات الأحكام إلى جميع أنواع ما يصدر عن الإنسان من الأعمال إلى العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج، إلى الأمور المدنية كالبيع و الربا، إلى الأمور الجنائية من قتل سرقة وزنا وقطع الطريق، إلى نظام الأسرة من زواج طلاق ميراث إلى الشؤون الدولية كالقتال وعلاقة المسلمين بالمحاربين وما بينهم من عهود وغنائم، وهو في هذا كله لا يتعرض كثيرا للتفاصيل الجزئية إنما للأمور الكلية وهو في الكثير من أمور التشريع مصلح قد أدخل على النظام الجاهلي تغيرات تعديلات يطول شرحها، فهو يقلل عدد الزوجات ويزيد من حرية المرأة و يغير كثيرا من عادات الجاهلية في زواجهم وطلاقهم ويضع نظاما للإرث يخالف النظام الجاهلي[2].

ومما أثر به الإسلام في الحركة العلمية أنه نشر بين العرب كثيرا من التعاليم التي بناها من قبل، فرفعت مستواهم العقلي، كما نشر بينهم كثيرا من أحوال الأمم الأخرى وتاريخها بإطناب وبإيجاز أحيانا أخرى حسبما يدعو إليه موقف العظة، فقص علينا قصة آدم ونوح وإبراهيم ويوسف و موسى و يونس وداود وسليمان و غيرهم ... عليهم السلام وشيئا من أخبار أممهم في أسلوب جذاب هيج النفوس إلى الإستزادة و التعرف على ما عند

[1] – أمين أحمد ، فجر الإسلام ، المرجع السابق، ص170

[2] – المرجع نفسه، ص:262

الأمم الأخرى منها اليهود والنصارى، فكان في ذلك نوع من الثقافة أفاد المسلمين ووسع مداركهم .

فكانت العقلية الجديدة نتيجة عاملين معا، منها أن العلماء الأولين من الصحابة ومن يلحق بهم مع اختلاف شخصياتهم العلمية نزلوا في البلاد المختلفة و كونوا فيها مدارس و مذاهب تبعا لمزاجهم العقلي فتأثرت البلاد التي نزلوا فيها بشخصياتهم ونهجوا في العلم مناهجهم ومنها ظهور أحداث سياسية و غير سياسية كان لها أثرا كبيرا في إمتياز بعض المدن بنوع من العلم ونمط التفكير[1] .

إن التراث الثقافي الخطير الذي خلقته الحضارة الإسلامية للحضارة الحديثة يظل شاهدا على ما كان يتصف به الفكر الإسلامي في عصوره الذهبية، فقد اتسم كفاحه في مجالاته كافة بالإحساس بالقانون وهو يستلزم القدرة على التركيب فوضعت النظريات القانونية و بناها الفقهاء على قواعد الأصول، و هكذا نجد التشريع الإسلامي يحمل للمرة الأولى في تاريخ التشريع طابع نظام فلسفي يقوم على مبادئ أساسية، بينما لا يعدو القانون الروماني أن يكون مجموعة من الملفقات القانونية العفوية ليس بينها رباط عقلي [2].

[1] – أمين احمد ، فجر الإسلام ، المرجع السابق ص: 170

[2] – بن نبي مالك ، وجهة العالم الإسلامي تر:عبد الصبور شاهين ، دار الفكر، دمشق .سورية، ط(1)، 1986، ص: 18

**المبحث الثاني : الفرق بين القرآن الكريم و النصوص الدينية الأخرى**

وهكذا تأتي رسالة الرسول الأمين و لكنها تتسم بصفة خاصة تميزها عما سبقها من الرسالات، إذ أنها الحلقة الأخيرة في سلسلة البحث و يأتي (محمد صلى الله عليه وسلم ) خاتم الأنبياء كما ينوه بذلك القرآن و يشهد به مرور الزمن منذ أربعة عشر قرنا.

وما كانت هذه الميزة التاريخية في الدين الجديد دون أن يكون أثرها في كل خصائصه، وفي نوع إعجازه على وجه الخصوص فإن حاجة التبليغ ستبقى مستمرة فيه سواء من الناحية النفسية لأن كل مسلم يحمل في نفسه "مركب التبليغ " أما من الناحية التاريخية لان الدين "الإسلام" الجديد سيكون دين آخر الزمن أي الدين الذي لا يعقبه دين سماوي آخر بل لا يأتي دين بصورة مطلقة كما تشهد بذلك القرون حتى أن حاجة الإسلام إلى وسائل تبليغه ستبقى ملازمة له من جيل إلى جيل، ومن جنس إلى جنس، لا يلغيها شيء في التاريخ وهذا يعني أن هذه الوسائل يجب أن لا تكون مثل الأديان الأخرى مجرد توابع يتركها الدين في الطريق عبر التاريخ بعد مرحلة التبليغ [1].

فهو على هذا ،الدين الوحيد الذي يتمتع بامتياز الصحة التي لا جدل فيها لأنه لم يثر النقد في أي مشكلة حوله سواء أكان ذلك شكلا أو موضوعا، فهذه هي مصادر الإسلام المدونة في حالتها الراهنة لأن الآيات القرآنية الصالحة تستخدم وسيلة تاريخية مطلقة الصحة، و الذي لا يصلح أن يستخدم –على كل حال– في أية دراسة نقدية إلا مع

[1] – بن نبي مالك ، الظاهرة القرآنية ، تر: عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ، دمشق. سورية، ط(4) 1987، ص: 67

الإحتياطات المستخلصة من الطرق نفسها التي اتبعها العلماء المحدثون المنزهون عن الكذب أو الغش أو التدليس كالبخاري و مسلم، وبهذه الاحتياطات يصبح المصدران اللذان يستخدمهما الباحثون في الإسلام صحيحين على سواء و سيكون من النفخ و الادعاء أن نرفض منذ البداية باسم المنهج ما تقدمه لنا السنة من أسانيد[1] .

و في دراسة نقدية للإسلام لا نستطيع أن نغفل أهمية فحص الوثائق المدونة أو التاريخية، التي يمكن أن تلقى ضوء على الظاهرة القرآنية على أن هذه المشكلة التاريخية قد حلت بالنسبة للإسلام بصفة استثنائية، فهو الوحيد من بين جميع الأديان الذي تثبت مصادره من البداية وعلى الأقل فيما يختص بالقرآن[2] .

ولقد إمتاز القرآن الكريم بميزة فريدة هي أنه تنقل من أربعة عشر قرنا دون أن يتعرض لأدنى تحريف، وليست هذه حال التوراة لا القديم الذي لم تعترف له بالصحة في الدراسة النقدية للشرّاح المحدثين فيما عدا واحد من كتبه هو كتاب أرمياء، وليس العهد الجديد بأسعد حالا فقد ألغى مجمع أساقفة (نيقية) كثيرا من أخباره مما زرع الشك حول ما تبقى منه وهو الإنجيل وهذا الأخير لا يعد من الصحاح لأن النقد أثبت أنه قد وضع بعد المسيح بأكثر من قرن :أي بعد عصر الحواريين الذي تنسب إليهم التعاليم المسيحية وعلى هذا فإن شكوكا كثيرة تحوم حول القضية التاريخية للوثائق اليهودية و المسيحية[3].

[1] – بن نبي مالك ، الظاهرة القرآنية ، المصدر السابق، ص: 107

[2] – المصدر نفسه، ص:103

[3] – المصدر نفسه، ص :103

وهذا التحديد الكامل للنص القرآني على عهد النبي صلى الله عله وسلم نفسه يعد ظاهرة جديرة بالملاحظة من وجهة علم الإجتماع و علم النفس، بخصوص الوسط العربي في العصر المحمدي فتلك نقطة جوهرية تستحق البحث و الوقوف أمامها إذ ليس هناك مشكلة تدوين بالنسبة للقرآن كما هو الأمر بالنسبة للكتاب المقدس، و هي أيضا مؤيدة بحقائق التاريخ التي ينبغي أن نلفت إليها انتباه القارئ ليلاحظ هو أيضا توافق واقع التاريخ مع هذه الآية القرآنية ↓ ❐◆◑⌧✡✵✍ ◉♑⬧❍←🕛 ◉♑⬧⬧⌧🕑▦✍→⓿❑♌♦ ↑ [1] و مع ذلك فإن لهذا الحفظ تاريخه الخاص

عندما كان الوحي يتنزل كانت آيات القرآن تثبت في ذاكرة الرسول صلى الله عليه وسلم و صحابته وتسجل فورا بأيدي أمناء الوحي، فقد كانوا يستخدمون من أجل ذلك ما يصلح للكتابة كعظام الكتف أو قطع الجلد ...الخ. [2]والآن لو جردنا المسألة من اعتبارات الذات المحمدية فلا ننظر إليها إلا بالنسبة للقيمة الذاتية للقرآن، دون أن نتسرع بالحكم على أهله أو طبيعته فسنبقى أمام اللغز نفسه والحق أن القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا يعد أكمل نموذج أدبي استطاعت اللغة أن تفصح عنه، فليس بها أدنى اختلال بل إنّ الاتساق البديع شامل لجميع نواحيه في روحه الجليل الغامر، وفي نذره الرائعة المؤثرة وفي مشاهدته الباهرة وفي حلاوته وعوده الفائقة، وفي فكرته المتسامية المتشامخة و أخيرا في أسلوبه البهي المعجز[3].

[1] – سورة يوسف، الآية: 12

[2] – بن نبي مالك ، الظاهرة القرآنية ، المصدر السابق، ص: 104

[3] – المصدر نفسه، ص : 275

إن القوم الذين يدينون بدين موسى (أي اليهود) يفقدون لأسباب نفسية لا سبيل لشرحها هنا نزعة التبليغ، فلا يشعرون بضرورة تبليغ دينهم إلى غيرهم من الأمم أي الأميين كما يقولون، حتى إننا إذا استخدمنا لغة الإجماع قلنا أن الإعجاز قد ألغاه هذا الدين عدم الحاجة إليه، إنّ مشيئة الله قد قدرت أن يأتي عيسى رسولا من بعد موسى، و أتى الدين الجديد لينسخ الدين السابق فينسخ طبعا جانب الإعجاز فيه و تزول الحجة بزوال ضرورتها التاريخية، ثم أتى عيسى بالدين الجديد وبما يتطلب هذا الدين من وسائل تبليغه أي بما يتطلب من حجة فأتى بإعجازه الخاص بالمعنى المحدد لغة و اصطلاحا فكان لعيسى إبراء الأكمه والأبرص و إحياء الموتى بإذن الله تعالى[1] .

فالأسباب تتكرر وإنما يتغير شكلها نظرا لما حدث من تطور في الظروف النفسية و الاجتماعية حول الدين الجديد، في البيئة التي ينشر فيها عيسى دعوته تلك البيئة التي تشع عليها الثقافة اليونانية و الرومانية، ولكن دلالة ما أوتي عيسى من إعجاز ستزول أيضا مع زوال موضوعها للأسباب نفسها التي ألغت جانب الإعجاز في دين موسى، أنه يأتي بعد عيسى رسول و دين جديد يلغيان الدين السابق دين عيسى عليه السلام فيلغي ضرورة التدليل على صحة الإنجيل[2] .

[1] – بن نبي مالك ، الظاهرة القرآنية ، المصدر السابق ، ص: 66

[2] – المصدر نفسه ص :66

و الواقع أن تتابع ديانات التوحيد دليل يمكن فحصه دائما من الناحية الإعتقادية فحصا على أساس النقد ويتمثل هذا التتابع في ظهور النبوة و جميع المظاهر الأدبية و الروحية التي تصحبها .

ومنذ إبراهيم تتابع أفراد مدفوعون بقوة لا تقاوم جاؤوا يخاطبون الناس باسم حقيقة مطلقة، يقولون أنهم يعرفونها معرفة شخصية وخاصة بوسيلة سرية هي الوحي و يقول هؤلاء الرجال أنهم مرسلون من الله ليبلغوا كلمته إلى البشر هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يسمعوها مباشرة .

ولم تتمكن المسيحية أو اليهودية من فرض نفسها على الجزيرة العربية و ذلك لان بني إسرائيل جعلوا دينهم مقصورا عليهم. وإدعوا أنهم شعب الله المختار الأمر الذي لا يحقق المساواة بين اليهود و غيرهم و المسيحية تعددت فرقها و مذاهبها و امتلأت بالتعقيدات ولم يستطع الذهن العربي أن يستسيغ مثل هذه الديانات المقعدة.

وأهل الكتاب (اليهود – النصارى) من الأمم التي حادت عن التوحيد بالرغم من أنه جاءتهم الرسالات السماوية بدعوة الإسلام التي أساسها التوحيد، لأن مصدر الرسالات كلها واحد فمصدرها من عند الله الواحد الأحد فإنهم حرفوا التوحيد و حادوا عنه يوم حرقوا الكتب المنزلة إليهم[1] .

[1] – – بن نبي مالك ، الظاهرة القرآنية ، المصدر السابق، ص: 31

إن بني إسرائيل أشد خلق الله عنادا أو جهلا وتلونا، فطبيعتهم المعوجة لم تفارقهم فهاهم أولا ما أن وقعت أعينهم على قوم يعكفون و يداومون على عبادة الأصنام لهم حتى انجذبوا إليها، وطلبوا من نبيهم موسى عليه السلام أن يجعل لهم وثنا كغيرهم كي يعبدوه من جديد[1].

فهذا وغيرهم مسندهم في دعواهم فقد حملوا النصوص وأولوها حسب أهوائهم و أغراضهم، وقد كشف بطلان هذا الادعاء من عقلائهم قالوا أن هذا على التشريف و الإكرام ليس أكثر فالمراد بالنبوة النبوة المجازية لا الحقيقية، فالواقع أن اليهود يرون لأفسهم فضلا عن سائر البشر وإنهم لهم صلة بالله تعالى تزيد عن صلة غيرهم و أنهم هم وحدهم أهل القربى منه[2] .

قيل أن المراد بالنبوة في قولهم نحن أبناء الله وأحباؤه النبوة الحقيقية، و مسندهم في ذلك ما جاء في توراتهم المزعومة إسرائيل ابني البكر و يقال لبني إسرائيل أبناء الله الحي وقد نتج عن دعوى اليهود أفضليتهم عن البشر وأنهم شعب الله المختار دعاوى أخرى زادتهم إنحرافا عن الإيمان بالله تعالى ، الإيمان الخالص حكاها القرآن وأبطلها[3] .

ولذا فسنحاول أن نبحث حالة النبي أرمياء الذي اخترناه من أجل الضمانات التاريخية التي تخول كتابه وتاريخه الشخصي قيمة الحقيقة الموضوعية، و الواقع أن البروفيسور

[1] – بن نبي مالك ، الظاهرة القرآنية ، المصدر السابق ، ص: 91

[2] – المصدر نفسه ، ص: 108

[3] – المصدر نفسه ص: 109

مونتيه Montet قد توصل في دراسة للوثائق الدينية إلى تجريد الكتاب المقدس من كل صفات الصحة التاريخية فيما عدا كتاب أرمياء، ومع ذلك فنحن نريد أن نتحاشى مساوئ النقد الحديث للكتاب المقدس، الذي يبدو وكأنه قد أخطأ في فهم طبيعة الموضوع بهذا التعميم المفرط للشك الديكارتي و الذي يؤدي غالبا إلى تفسير متعسف للحقائق النفسية التي هي الأساس في الموضوع [1].

على حين أن هذه الحقبة من التاريخ الإسرائيلي لم تكن فترة إرتقاء روحي بل هي الأخرى فترة تدهور خلقي و ديني ناتج عن الاضطرابات الاجتماعية و السياسية، وهذا التدهور على وجه التحديد موضوع دعوة الأنبياء من عاموس .AMOS و معاصريه ميخا Michée هوشع ، ليعلنوا و عد البشارة و الغفران بل ليبلغوا وعيد العقوبة و البلاء[2].

و تفسير ذلك من وجهة نظر التاريخ هو أنه حدث في ذلك العصر أمران هما : هبوط رب العالمين إلى مجرد إله فوضى من ناحية، ودخول كثيرا من الشعائر و الطقوس الأشورية الكلدانية في العبادة من ناحية أخرى، حتى أصبحت الشمس تتمتع بتقديس حار في بيت المقدس ، فقد كان هناك رجال يعبدون الشمس المشرقة و في أيديهم غصن بالقرب من هيكل الرب نفسه كما يقول مؤرخو تلك الفترة[3] .

[1] – – بن نبي مالك ، الظاهرة القرآنية ، المصدر السابق، ص: 88

[2] – المصدر نفسه ، ص:89

[3] – المصدر نفسه ،ص:89

كان الغرض من الشريعة الموسوية أن تضع مبادئ مجتمع موحد ناشئ، و أن توثق الصلات بين أفراده أولائك الأفراد المغمورين في مجموعات الشعوب الوثنية، و بذلك تكون هذه الشريعة قد تصورت المشاكل الاجتماعية من الوجهة الإسرائيلية الداخلية، ثم إننا نجد شريعة الحب أي عيسى تفتح أكثر من ذلك باب الرحمة المسيحية لأهل الفطرة من الوثنيين[1].

وهذا التصور يتمثل في قولهم أن الله جوهر واحد وثلاثة أقانيم: (أقنوم الأب ، أقنوم الإبن ، أنوم الروح القدس) واحدة في الجوهر مختلفة الأقانيم وقال بعضهم إنها خواص ، وقال بعضهم إنها أشخاص وذوات[2] .

وتعتبر عقيدة التثليث أساسا من أسس ديانة النصارى (المحرفة) و الثابت تاريخيا إنها دخيلة عن المسيحية. و ليس لها وجود في الأصل اليوناني للإنجيل، بل مأخوذة من الوثنية الفرعونية و المبادئ البابلية التي وجدت في لوحة أثرية عثر عليها في بابل و يرجع تاريخها 1200 ق م ، ولم تقرر هذه العقيدة عند المسيحيين إلا في مجتمع ينقيه المنعقدة 320 ق م

و عليه فان عقيدة التثليث لا يقبلها و لا يؤيدها نقل ومع ذلك فان المسيحيين يبشرون بها ويدعون الناس إلى الإيمان بها دون فهمها أو البحث في حقيقتها[3] .

---

[1] – – بن نبي مالك ، الظاهرة القرآنية ، المصدر السابق، ص: 209

[2] – عبد الرحمان محمد عبد الرحمان ، أسلوب القرآن الكريم في دعوة أهل الكتاب ، دار ، المنصورة ، مصر، ط( 01 ) 2009 ص: 121

[3] – عبد الرحمان محمد عبد الرحمان ، المرجع السابق ، ص: 121

لا شك أن الاعتقاد بثلاثة آلهة ينافي و يناقض عقيدة التوحيد التي دعى إليها القرآن بكل بساطة ووضوح فالقرآن يقدم تصورا عن الله تعالى محررا من آية شائبة من شوائب الشرك فانه سبحانه↓ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ↑[1]

إن الأخلاق اللادينية بقدرها لهذا التعبير من معنى تقييم أعمال الإنسان على أساس المنافع الشخصية العاجلة التي صارت أساس المجتمع المدني، على أن الأخلاق الدينية التوحيدية تحترم أيضا المنفعة الشخصية ولكنها تمتاز برعاية منافع الآخرين، وهي بذلك تدفع الفرد إلى أن ينشأ دائما ثواب الله قبل أن يهدف إلى فائدته،ن ومن أجل هذا صاغت التوراة الميثاق الخلقي الأول للإنسانية في وصاياها العشر، و ساق الإنجيل توجيهاته في عظمة المسيح على الجيل، ولكن الأمر في الكتابين كليهما أمر مبدأ أخلاقي سلبي فهو يأمر الناس بالكف عن فعل الشر في حالة وبعدم مقاومة الشر في أخرى[2].

أما القرآن فسيأتي بمبدأ إيجابي أساسي كي يكمل منهج الأخلاق التوحيدية ذلك المبدأ هو لزوم مقاومة الشر فهو يخاطب معتنقيه بقوله :↓ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر** ▤ ↑⇗ [3].

## المبحث الثالث : مظاهر الإعجاز في القران الكريم

[1] – سورة الشورى، آية: 11

[2] – بن نبي مالك ، الظاهرة القرآنية ، المصدر السابق ، ص : 207

[3] – سورة آل عمران، الآية : 110

المعجزة آمر خارق للعادة مقرون بالتحدي صراحة أو ضمنا يجريه الله على يد من يدعى النبوة،ن فإذا قام إنسان وادعى النبوة و قال الدليل على صدقي أن يجري الله سبحانه على يدي ما يخالف المألوف من عادته، ثم يتحدى الناس زرافات ووحدانا أن يأتوا بمثل ما أتى به وفيهم الكثيرون ممن هم على شاكلته، ثم لم يكن منهم إلا العجز وعدم الاستطاعة فلا شك أن هذا دليل قوي وبرهان صادق على صدقه، وان ما جاء به من عند الله سبحانه –فمتى ظهرت المعجزة على يد إنسان وقارن ظهورها دعوى النبوة علم بالضرورة أن الله تعالى ما أظهرها إلا تصديقا لمن ظهرت على يده، لأنه من المحال أن يؤيده الله و هو كاذب إذ تأييد الكاذب تصديق له، وتصديق الكاذب كذب و الكذب محال على الله تعالى[1].

و الحاصل أن المعجزة لغة مأخوذة من العجز وهو ضد القدرة.

و عرفًا : أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي الذي هو دعوى الرسالة أو النبوة مع عدم المعارضة وقيل : هي آمر يظهره الله على يد نبي مدع للنبوة تصديقا لدعوته ويكون بخلاف العادة عند تحدي المنكرين على وجه يعجز المنكرين عن الإتيان بمثله[2] .

لقد أيد الله تعالى أنبيائه بمعجزات تناسب أزمانهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما من نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة" [1].

[1]– ابن كثير ، صحيح معجزات النبي ، دار العهد ،المنصورة، القاهرة ، ط (1) ، 2014 ، ص:11

[2] – المرجع السابق ، ص: 12

وكذلك لما كان النبي صلى الله عليه وسلم قد بعث في وقت اكتمل فيه العقل البشري وبلغت البشرية فيه سن الرشد و اختير من قوم عرفوا بالفصاحة و البلاغة، كانت آيته الكبرى قرآنا يتلى بلغ أقصى درجات الفصاحة والبلاغة مع الإصابة في القول و الحكمة في التشريع والصدق في المعاني و النبل في المقاصد و السمو في الأخلاق والآداب[2].

لقد كانت معجزات الأنبياء السابقين حسية تنقضي بانقضاء أزمنتها فهي لمن شاهدها أما معجزة نبينا الكبرى وكانت معنوية، وذلك لأن رسالات الأنبياء السابقين كانت لبعض الناس ولزمان مؤقت معين فهي محدودة بحدود الزمان والمكان، بخلاف رسالة نبينا فهي للناس كافة و مستمرة إلى يوم القيامة كما قال تعالى ↓ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ↑[3]

لو تتبعنا الروايات الصحيحة الموثوق بها لما بلغت المعجزات الحسية عشر هذا المقدار، و القرآن الكريم اشتمل على معجزات كثيرة كالإخبار بالغيبيات السابقة واللاحقة وتحدى اليهود أن يتمنوا الموت فلعلهم عدوا، أيضا كل هذه المعجزات مستقلة وبهذا يخلص لهم من المعجزات شيئا كثيرا وهذه المعجزات النبوية ليست على درجة واحدة فمنها المتواتر المفيد للقطع و اليقين بلا ريب، أما المعجزات الأخرى فمنها ما ثبت بالتواتر وذلك كالمعجزات التي وردت في القرآن الكريم أو وردت في الأحاديث المتواترة، ومنها ما لم يثبت

---

[1] – رواه البخاري في صحيحه ، كتاب فضائل القران ، باب كيف ينزل الوحي ، عن أبي هريرة (1981 /7274)

[2] – ابن كثير ، صحيح معجزات النبي ، المصدر السابق، ص:15

[3] – سورة الانبياء ، الآية : 107

بالتواتر بل ثبت بالروايات الأحادية الصحيحة، و ذلك كالمعجزات الثابتة بالأحاديث التي لم تتواتر ومن هذه استفاض واشتهر برواية الأئمة العدول الثقات حتى كاد يلحق بالمتواتر[1].

فمن المعنوية –المعجزات – إنزال القرآن عليه وهو أعظم المعجزات وأبهر الآيات وأبين الحجج الواضحات لما اشتمل عليه من التركيب المعجز الذي تحدى به الإنس والجن أن يأتوا بمثله فعجزوا عن ذلك ، مع توافر دواعي أعدائه على معارضته وفصاحتهم وبلاغتهم ثم تحداهم بعشر سور منه فعجزوا، ثم تنازل إلى التحدي بسورة من مثله فعجزوا عنه وهو يعلمون عجزهم و تقصيرهم عن ذلك وأن هذا ما لا سبيل لأحد إليه أبدا [2].

فبين تعالى أن الخلق عاجزون عن معارضة هذا القرآن بل عن عشر سور مثله بل سورة منه وإنهم لا يستطيعون ذلك أبدا كما قال تعالى↓ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا** ↑ [3]

لقد قام إعجاز القرآن حتى الآن على البرهان الظاهر على سمو كلام الله فوق كلام البشر، وكان لجوء التفسير إلى الدراسة الأسلوبية لكي يضع لإعجاز القرآن أساسا عقليا ضروريا فلو أننا طبقنا نتائج فرض "مرجليون" كما فعل الدكتور "صباغ" لانهار ذلك الأساس، ومن هنا توضع مشكلة التفسير في صورة خطيرة بالنسبة لعقيدة المسلم أعني بالنسبة إلى إعجاز القرآن في نظر هذا المسلم، وربما لم يكن التطور العقلي ليقتصر عن دفع شبابنا الجامعي إلى ملاحظة تقادم المقياس القديم أن آجلا أو عاجلا ذلك المقياس الذي

[1] – ابن كثير ، صحيح معجزات النبي ، المرجع السابق، ص:17

[2] – المرجع السابق، ص: 21

[3] – سورة البقرة ، الآية : 24

كان يقدم حتى ذلك الحين الدليل القاطع على المصدر الغيبي للقرآن، أما بالنسبة للعقل ذي الصبغة الديكارتية فأية قيمة تبقى لبرهان يبدو منذئذ وقد فقد موضوعيته وأصبح ذاتيا ومحضا وهذا الموضوع لا يتصل ببيان القرآن الذي بقي على ما هو عليه حيث نزوله ولكن بوضع المسلم نفسه[1] .

والحق أنه لا يوجد مسلم وخاصة في البلاد غير العربية يمكنه أن يوازن موضوعيا آية قرآنية وفقرة موزونة أو مقفاة من أدب العصر الجاهلي، فمنذ وقت طويل لم نعد نملك في أذواقنا عبقرية اللغة العربية ليمكننا أن نستنبط من موازنة أدبية نتيجة عادلة حكيمة، ومنذ وقت طويل أيضا تكتفي عقائدنا في هذا الباب بالتقليد الذي لا يتفق وعقول المتعلقين بالموضوعية، فمشكلة التفسير توضع إذن في ضوء جديد وربما نظرا إليها المصريون المحدثون في هذا الضوء[2].

أهل اللغة يرون أن الإعجاز هو الإيقاع في العجز ، وأهل الاصطلاح يرون أن الإعجاز هو الحجة التي يقدمها القرآن في خصومه من المشركين ليعجزهم بها ، فأما نحن نريد تحديد هذا المصطلح في حدود التاريخ أي في تطور إدراك البشر حجة الدين ، وإدراك المسلم لحجة الإسلام خاصة فلا بد من مراجعة القضية في ضوء تاريخ الأديان ، وهذا هو الإعجاز من نواحيه الثلاث[3].

---

[1] – بن نبي مالك ، الظاهرة القرآنية ، المصدر السابق، ص:57

[2] – المصدر نفسه ، ص: 57، 58

[3] – بن نبي مالك ، الظاهرة القرآنية ، المصدر السابق ، ص،:60

أما الآيات التي تدل عليه في القرآن بل تلفت النظر إليه معتمدة ، فهي كثيرة مثل قوله ↓ **قل لئن إجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**↑ [1]

وقوله تعالى↓**أم يقولون افتراه قل ان افتريته قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دونه إن كنتم صادقين فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا الله فهل أنتم مسلمون** ↑⇔ [2] وقوله جلا شأنه↓ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ↑[3]

ويجب أن نلاحظ أن هذه الآيات الثلاث لم يسقطها القرآن لتنشئ الحجة وإنما جاءت إعلانا هنا و إشهارا لوجودها في سائر القرآن، كما تؤتي تأثرها في العقول المتربصة ، وتنتج أثرها في القلوب التي لا زالت في أكنتها .

فإلى أي مدى بلغ هذا التأثير في الوسط الجاهلي[4]

فالشعر العربي كما قال الأستاذ محمود شاكر في مقدمة هذا الكتاب «كان حين انزل الله القرآن على نبيه صلى الله عليه وسلم نورا يضئ ظلمات الجاهلية ويعكف أهله على بيانه عكوف الوثني للصنم، ويسجدون لآياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم قط ، فقد

---

[1] – سورة الإسراء، الآية: 88

[2] – سورة هود الآية : 13 و14

[3] – البقرة الآية : 23 و24

[4] – بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص: 60

كانوا عبدة البيان قبل أن يكونوا عبدة الأوثان وقد سمعنا من استخف منهم بأوثانهم و لم نسمع قط منهم من استخف ببيانهم »[1]

هذه صورة الظروف النفسية التي نزل فيها القرآن فكان لإعجازه أن ينفذ إلى الأرواح بصفة عامة في زمن النزول ـ على هذا السبيل ـ أي بما ركب في الفطرة العربية من ذوق بياني[2]

ومن الممكن أن نتتبع هذا التطور في مرحلتيه في مراجع التاريخ الكلاسيكي:

في ذلك أن السيرة تروي بعض المواقف التاريخية التي يظهر فيها أثر الإعجاز على الذوق الفطري عند العرب في الجاهلية و يظهر في صورتين :

أولها : إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما تأثر بآيات سمعها من أخته أو قرأها في صحيفتها

ثانيا : حكم الوليد بن المغيرة حيث يقول في القرآن « والله لقد سمعت كلاما ما هو كلام الإنس ، ولا من كلام الجن وأن له لحلاوة وأن عليه لطلاوة »وهنا نرى الوليد يقف على قيد شبر من الإيمان وقد هزه القرآن، و لكن ما كان للحجة أن تغير أمرا أراده الله فترى الوليد

[1] – المصدر نفسه، ص: 61

[2] – بن نبي مالك ، الظاهرة القرآنية ، المصدر السابق ،ص : 61

ينتكس ويختم كلامه منكرا صدق الرسالة بقوله : "وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحرا يفرق بين المرء و أخيه ...الخ[1]

وفي كتب التاريخ محاولات ممن طاشت عقولهم و استبد بهم الغرور فتصدروا المواجهة ، هذا التحدي وما دروا أنهم في ذلك كمن أراد أن يقطع المحيط سبحا أو يسابق النفاثة مشيا ومن هذه المحاولات ما وقع من الشاعر لبيد بن ربيعة الشهير ببلاغة منطقه وفصاحة لسانه و رصانة شعره، فعندما سمع أن محمد يتحدى الناس بكلامه قال بعض الأبيات ردا على ما سمع وعلقها في باب الكعبة، وكان التعليق على باب الكعبة امتيازا لم تدركه إلا فئة قليلة من كبار الشعراء و حين رأى أحد المسلمين هذا أخذته العزة فكتب بعض آيات الكتاب الكريم و علقها إلى جوار أبيات لبيد، ومر لبيد بباب الكعبة في اليوم التالي ولم يكن قد اسلم بعد فأذهلته الآيات القرآنية حتى أنه صرح من فوره قائلا «والله ما هذا بقول بشر وأنا من المسلمين، وكان نتيجة هذا الشاعر العربي العملاق ببلاعة القرآن أنه جر الشعر وقد قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوما : يا أبا عقيل أنشدني شيئا من شعرك فقرأ البقرة وقال « ما كنت لأقول شعرا بعد أن علمني الله سورة البقرة وآل عمران»[2]

وعليه يجب أن يكون إعجاز القرآن صفة ملازمة له عبر العصور و الأجيال وهي صفة يدركها العربي في الجاهلية بذوقه الفطري كعمر رضي الله عنه أو الوليد، أو يدركها بالتذوق العلمي كما فعل الجاحظ في منهجه الذي رسمه لمن جاء بعده ولكن المسلم اليوم

[1] – المصدر نفسه، ،ص: 60

[2] – الصديق محمد الصالح، البيان في علوم القران، المرجع السابق، ص: 240 ،241

فقد فطرة العربي الجاهلي، و إمكانيات عالم اللغة في العصر العباسي و على الرغم من هذا فان القرآن لم يفقد بذلك جانب الإعجاز لأنه ليس من توابعه بل من جوهره، و إنما أصبح المسلم مضطرا إلى أن يتناوله في صورة أخرى مما يتناولها من ناحية العبارة [1]

[1] – بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق ، ص: 67

## المبحث الأول: مفهوم الظاهرة القرآنية

ينبغي أن ندرك أن التطور الثقافي في العالم الإسلامي يمر بمرحلة خطيرة ، إذ تتلقى النهضة الإسلامية أفكارها واتجاهاتها الفنية عن الثقافة الغربية و خاصة عن طريق مصر هذه الأفكار لا تقتصر على أشياء الحياة الفكرية الجديدة التي يتعودها الشباب المسلم شيئا فشيئا ، بل إنها تمس أيضا و بطريقة غامضة ما يتصل بالفكر و ما يتصل بالنفس ، وفي كلمة واحدة ما يتصل بالحياة الروحية[1]

إن الأعمال الأدبية لهؤلاء المستشرقين قد بلغت في الواقع درجة خطيرة من الإشعاع لا نكاد نتصورها ، و حسبنا دليلا على ذلك أن يضم مجمع اللغة العربية في مصر بين أعضائه عالما فرنسيا، ربما أمكننا أن ندرك ذلك أذا لاحظنا عدد رسالات الدكتوراه و طبيعة هذه الرسالات التي يقدمها الطلبة السوريون و المصريون كل عام إلى جامعة باريس و حدها ، وفي هذه الرسالات كلها يضرون كما أوجبوا على أنفسهم على ترديد الأفكار التي زكاها أساتذتهم الغربيون [2].

[1] – مالك بن نبي الظاهرة القرآنية ، المصدر السابق ، ص: 54

[2]– المصدر نفسه ، ص54

وهذا كله لا غبار عليه لو اقتصر الاستشراف بمناهجه على الموضوع العلمي ، لكن الهوى السياسي الديني كشف نفسه أحيانا بكل أسف في تأليف هؤلاء المتخصصين الأوربيين في الدراسات الإسلامية ، على الرغم من أنها تدعو إلى الإعجاب حقا[1] .

إن مشكلة التفسير القرآني على أية حال هي مشكلة العقيدة الدينية لدى المتعلم كما إنها مشكلة الأفكار الدارجة لدى رجل الشارع ، ومن هاتين الوجهتين ينبغي أن يعدل منهج التفسير في ضوء التجربة التاريخية التي مر بها العالم الإسلامي، و بالتالي فإذا أنت هذه الأسباب التي قدمناها تدل على ضرورة هذا التعديل فهناك أسباب أخرى تدل على محتواه اعني على صورة المنهج الذي يجب أن نسلكه في مشكلة الإعجاز[2] .

و إذا كانت هذه الضرورة ملحة بالنسبة للمسلم ، الذي حاول تعقيد عقيدته على أساس إدراك شخصي لقيمة القرآن بوصفه كتابا منزلا ،فإنها أكثر إلحاحا بالنسبة لغير المسلم الذي يتناول القرآن بوصفه موضوع دراسة أو مطالعة ، فهذه في مجملها الأسباب التي دعتنا إلى تطبيق التحليل النفسي خاصة لدراسة القرآن بوصفه ظاهرة ، بيد أن تنفيذ هذه المهمة أظهر نقائص جهازنا الفني دون تواضع ،بل عن معرفة تامة بالقضية التي نعد تنفيذها مجرد إرشادا لما سيتلوها من دراسات ، نحتاج للقيام بها أن نحشد وسائلنا الفنية ووثائقنا[3] .

---

[1] – – بن نبي مالك ، الظاهرة القرآنية ، المصدر السابق، ص: 55

[2] – المصدر نفسه ، ص: 59

[3] – المصدر نفسه ، ص: 68

ويؤكد مالك بن نبي أنه لما وهنت الدفعة القرآنية في نفوس السامعين توقف نشاط العالم العربي الإسلامي ، وأخلد أهله إلى الحضيض و ضعفت حضارته ومن هنا فان نهضة الحضارة العربية الإسلامية مرهونة بالعودة إلى منابعها الأصولية الأولى، واكتساب أهلها الإيمان و إتباع العقيدة منهجا وسلوكا للفرد و الجماعة ، باضمحلال الوازع الديني و ضعف الضمير الخلقي للحضارة ينبغي على المثقف و المفكر العربي أن يحذر من الوقوع في الخطأ والروح الانهزامية فكثيرا ما يتطلع العقل العربي إلى تفسير القضايا و نقائص صنعها بيده ، لأنه لا يريد الاعتراف بالخطأ أو أنه لا يحب أن يكلف نفسه عبء الإصلاح و من هذا المنطق يرمون التبعية المسؤولية على غيرهم، مع أن العقل ينادي بالإصلاح الفردي للخطأ عند وقوعه هذا لأنه وكما يقول أسعد السخمراني « الثقافة هي التي تهيئ المناخ الصحي اجتماعيا وتربويا لكي تقوم فيها ذات الإنسان الفرد ، وعندها سيكون هذا الإنسان الجديد صانع الحضارة في المستقبل بعيدا عن الهيمنة الاستعمارية، ففي حل مشكلة الثقافة حل مشكلة سياسية »[1]

هذا وإلا قد تتحطم عقول العباقرة على صخرة الإهانة والقلق والحاجة فتتصرف إلى التفكير ، وفي إفراد أية أمة تبرز طائفة بروزا خاصا يجعلها مؤهلة لتقوم بدور قيادي في

[1] – أسعد السخمراني ، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ، دار النفائس، بيروت ،ط(2) ، 1986، ص: 207

المجالات المختلفة وعلى الأمة الواعية أن تراعي هذه الطاقة رعاية خاصة، وان تكفل لها كل مقومات النجاح وإلا أجهضت نهضاتها "[1]

في الناس إسلاما خلع عند سدول التاريخ وما كان له من نظرية يركن إليها سوى القرآن نفسه ولكن أي قرآن أعتمد ، فهل القرآن الذي كان يبعث فيه الروح في الرحيل الأول من جماعة الإخوان المسلمين الذي كان يعمل به ابن تيمية مع ابن قيم الجوزية و إبن حزم الأندلسي و الغزالي ، أم هو القرآن الذي جهر به جمال الدين الأفغاني [2]؟

وهذا ما دعى إليه محمد عبده و ابن باديس فيما بعد إنه القرآن الذي يحرك الحياة حيث كان للرجل القوة التي يجعل من آيات القرآن أمرا عجيبا يملي على الفرد سلوكا جديدا و يجريه جديا في حياة النشاط و العمل ، نعم إن ذلك القرآن الذي يعيد تشكيل العقل ، كان يستخدم القرآن أو الآية كفكرة محررة مكتوبة إذا كانت العقيدة سليمة وقوية فان تأثيرها يكون قويا ودائم الفعالية ، ولن تكون الإنسانية مع توالي المنبهات و تواصل الصدمات وما أظن أن يمر المسلمين مثل تلك المدة قبل أن يبلغوا من إصلاح الدين و الدنيا ما هو أهلا لهم[3] .

و في عصرنا هذا اعتنى بفكرة – مالك بن نبي– الكثير من الفلاسفة و المفكرين بعضهم يدرس و يحلل و يدافع و بعضهم ينقد و يقوم ، ولقد ارتبطت نظرية الثقافة وفلسفة

---

[1]– وزارة الحج و الأوقاف ، التضامن الإسلامي ، مجلة إسلامية شهيرة بمكة المكرمة الجزء الأول، 1985، ص: 36

[2]– شايق عكاشة ، الصراع الحضاري في العالم الإسلامي ، الجزائر ،د(ط) ،د(ت)، ص: 37

[3]– محمد عبده ، الإسلام والنصرانية بين العلم و المدنية ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ، لبنان، د(ط) ، د(ت)، ص: 123

الإصلاح عند مالك بن نبي بالإسلام باعتباره المصدر الأعلى والوحي الاسمي وكلمة الحق و القانون الأبدي الخالد في التوجيه والتدبير في حياة الإنسان الاجتماعية، لهذا أولى مالك بن نبي اهتماما كبيرا بالفكرة الدينية حتى وإن كان قليل التركيز على مطلب تطبيق الشريعة الإسلامية، فهذا لا يعني بحال من الأحوال انه غير مهتم بالشريعة، بالعكس فهو أولا في نظريته الرئيسة يرى أنه لا يمكن أن تقوم حضارة دون الدين ، المركب لعناصر الحضارة و هو ثانيا يعارض الأوضاع التي لا تتناسب مع الشريعة الإسلامية[1].

ويستخدم مالك بن نبي طريقة الكيميائي لتحليل الحضارة إلى عناصر، يقول في ذلك " لكي نتناول هذه المشكلة على هذا الشكل يتعين علينا اللجوء إلى الطريقة المعتمدة في مختبر التحليلات[2] ، حيث أن المنتجات الحضارية في عالم الأشياء و عالم الأشخاص من طبيعة اجتماعية واحدة ، فهي نوع واحد من حيث تركيبها ووظيفتها الاجتماعية فالقلم و الورقة والحبر أشياء و الكلمات تحمل أفكار و دلالات، و الباحث و القارئ والمفكر من عالم الأشخاص ، كل هذا من نوع واحد ، إلا انه عند تفكيك عينة مما ذكرنا نجدها مركبة من ثلاثة عناصر أولية :

وهي الإنسان ، التراب ، الوقت ، فكل حضارة و مهما كانت درجة تطورها لديها هذه العدة الدائمة حسب تعبير مالك بن نبي فكل منتجات أي حضارة : مجموع إنسان +مجموع تراب+ مجموع وقت ويمكن صياغة النتيجة على الشكل التالي : حضارة = الإنسان +

[1]– محمد شاوش ،مالك بن نبي و الوضع الراهن ، دار الفكر، دمشق، ط(1)، 2006، ص: 75

[2]– بن نبي مالك ، آفاق جزائرية للحضارة ، تر: الطيب شريف ، مكتبة النهضة الجزائرية ، د(ط)، د(ت)، ص: 65

التراب + الوقت ، إن هذا التحليل و هذه المعادلة التي تعتبر من الأسس الفكرية في البناء الحضاري عند مالك بن نبي، تؤدي إلى نتيجة حتمية مفادها أن الحضارة لا تقوم على ظاهرة التكديس للمنتجات الحضارية [1].

لكن السؤال المطروح هنا إذا كانت هذه العناصر الثلاثة المتمثلة في الإنسان و التراب و الوقت في شتات، و الحضارة هي وحدة متماسكة، فكيف يتم التركيب بين هذه العناصر ؟

لقد تفطن مالك بن نبي إلى هذا الأمر فلجأ إلى مختبر التاريخ ، ليدله على المركب الذي يتدخل في تركيب العناصر الثلاثة : الرجل ، التراب ، الوقت فتوصل إلى أن العنصر الرابع هو الدين باعتباره الأساس الرابع من أسس الحضارة، و يستشهد على الدور الذي لعبه الدين في تشكيل حضارات عديدة من خلال تأليفه بين الإنسان والتراب و الوقت فالحضارة الغربية من صنع الفكرة الدينية المسيحية، والفكرة الدينية الإسلامية هي التي صنعت الحضارة الإسلامية وفكرة "كوناما" كدين هي التي شيدت الحضارة البوذية ، وعليه فمشكلة التحضر عند مالك بن نبي لا تحل باستيراد المنتجات الحضارية و تكديسها بل ، حل مشكلة الإنسان و مشكلة التراب و مشكلة الوقت .

[1]– بن نبي مالك، تأملات ،إشراف ندوة مالك بن نبي، ، دار الفكر، دمشق ،ط(5)، 1991 ، ص: 198

وتمثل العناصر الحضارية الأربعة العدة الدائمة عند مالك بن نبي قيما خالدة وهي التي نجدها كلها وجب علينا العودة إلى بساطة الأشياء ، أي الواقع كلما تحرك رجل الفطرة تحركت معه حضارة في التاريخ[1] .

وإذا تحدثنا سابقا عن أهمية الفكرة الدينية في تركيب العناصر الأولية التي تشكل الحضارة فإننا نتساءل ، لماذا اختار مالك بن نبي الفكرة الدينية كعامل مهم جدا في صناعة الحضارة و تركيب عناصرها ؟ وما هو الغرض من هذا الاختيار ؟

وهذا ما سنتناوله في المبحث الثاني .

[1] بن نبي مالك ، شروط النهضة – تر: عمر كامل مستعاوي ، وعبد الصبور شاهين ،دار الفكر، بيروت،لبنان، ط(3) 1969، ص: 92

## المبحث الثاني : علاقة الظاهرة القرآنية بالحضارة

علينا أن نتوقف عند تعريف الحضارة عند مالك بن نبي ، حيث أنه إذا كانت الحضارة لدى العديد من المفكرين هي مظاهر التقدم الأدبي و الفني و العلمي و التقني تنتقل من جيل إلى آخر، وتمثل في الوقت نفسه الصورة الغائبة التي يشتد إليها في الحكم على صفات كل فرد أو جماعة فإنها تعني عند مالك بن نبي سائر الشروط و العوامل الأخلاقية و المادية التي تسمح لمجتمع ما بان يتكفل بجميع أفراده ، ماديا ومعنويا في جميع أطوار الحياة ، فهي ظاهرة إنسانية مركبة من عدة عوامل مرتبطة بالفرد و بتفكيره بحياته النفسية و سائر ظروفه وما يطرأ عليها من تغيرات ، كما تتصل بالمجتمع بأوضاعه و بمكوناته ، وبما يجري عليها من تحولات و الدين ظاهرة إنسانية حالة في الفرد و لمجتمع تتحد بجملة من التعاليم و التوجيهات و المعتقدات يقربها الإنسان ، وتنظم سلوكه و تحدد نمط حياته .

أهمية الفكرة الدينية في حياة الأفراد والمجتمعات كبيرة جدا لأنها تملك علاقة بحركة التاريخ وبناء الحضارات،الأمر الذي جعل مالك بن نبي لا يسقط الفكرة الدينية من جميع مناقشاته وكتاباته ، فكيف يغفلها و هي عنده أساس بناء الحضارة وأساس تحريك عجلة التاريخ و أساس تشييد صرح المجتمع المتحضر ،فإذا كان الدين عند البعض عامل

تخدير[1] و جمود و تخلف ، فهو عنده عامل تركيب و تأليف بين عوامل وشروط و لوازم البناء الحضاري ،فالعقيدة تغذي الروح مثلما يتغذى الجسم من الأشربة و الأطعمة والحضارة في طورها الأول تشترط عوامل روحية دينية تكون وراء كل تجديد في النهضة الحضارية ، فهو يرى أن الحضارة ليست وليدة الجغرافيا و المناخ في صورة التحدي و الاستجابة (توينبي) و لا العامل الاقتصادي (ماركس) وإنما الحضارة وليدة الفكرة الدينية و مبدأ أخلاقي فتأثير الفكرة الدينية في الروح الفردية و الاجتماعية هو الذي يحدث الدوافع و الأسباب في روح الفرد و المجتمع للنهوض ويكون هذا الحال وراء كل تحديد حضاري وخلف كل حضارة و أساس حركة الإنسان في التاريخ.

و الإضافة إلى الفكرة الدينية نجد فكرة التغيير التي تمثل أحد المبادئ التي يقوم عليها المشروع النهضوي عند مالك بن نبي والتغيير الذي يعرفه التاريخ يمس حياة الفرد و المجتمع والأمة ، هو جوهر ولب التجديد الحضاري لهذا اعتبره مالك بن نبي أحد الأسس الفكرية عنده ، ويضع مالك بن نبي التغيير كفاعلية إنسانية فردية و اجتماعية وأممية ، وراء كل نهضة يمثل مبدأ التغيير عنده قاعدة ذهنية أكد عليها القران الكريم في قوله تعالى

**↓ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ▤ ↑**[2]

[1] – نجد مثل هذا الفكر الذي يرى أن الدين "عامل تخدير الشعوب" عند الغربيين بصفة عامة إتباع الفكر العلماني الذي ينادي بفصل الدين عن الحياة المدنية و السياسية، ونجده على وجه الخصوص عند إتباع الفكر الماركسي الذي يقول أن الدين أفيون الشعوب.

[2] – سورة الرعد، الآية : 11

لهذا فالتغيير ضرورة لابد منها لكي يحقق الإنسان وجوده في التاريخ ، ويقوم بوظيفته الاجتماعية، التاريخية و يبدأ التغيير من داخل نفس الفرد ، ثم يشق طريقه خارج الفرد في المجتمع و الأمة والإنسانية جمعاء ، وهذا المبدأ لا يؤكده تاريخ النهضات و الحضارات بمفرده بل يمثل مبدأ قرآني ثابت، وسنة من سنن الكونية وضعها الله لتهدي حياة العبد كما يمثل هذا حقيقة علمية ، فالفرد لا يمكنه أن يغير شيئا في الخارج إن لم يغير شيئا في نفسه ، و حينما نقول هذه الكلمة نقولها باعتبارها علما لا نقولها فقط تبركا بآبية نقولها علما و نعرف مقدارها من الصحة العلمية [1]و هكذا فجوهر التغيير كما سبقو بينا مرتبطا ارتباطا وثيقا بنفسية الفرد ، التي يؤدي تغييرها إلى ثورة سلوكية في طبيعة التعاملات بين الأفراد من جهة ، وبين الفرد و محيطه من جهة أخرى ، ويرجع ذلك لكون السلوك الظاهر إنما هو ترجمة لتلك الأحوال النفسية لدى الأفراد وبذلك السلوك يمكن أن يواجه مختلف التحديات لهذا يقول ابن نبي «لان الحضارة كالحرية لا يمكن الحصول عليها ، إلا بالإنسان المتعقل لفعله ، المدرك لوقته المتفاعل مع التراب المتناغم مع التراث ، المتعلق بالمعارف العالمية على سواء، دون أن يتحول إلى زبون يستهلك و لا ينتج» [2]

لهذا يجب التذكير إن الإنسان يمثل سببا فاعلا و غائيا في الوقت نفسه بالنسبة للحضارة[3] .

[1] – بن نبي مالك ، دور المسلم في الثلث الأخير من القرآن العشرين ، دار الفكر، دمشق، سوريا ، تصويره 1985 طبعة 1978

[2] – عبد القادر بوعرفة ، الانسان المستلقي في فكر مالك بن نبي ، دار الغرب ، الجزائر ، د(ط)،د(ت)، ص: 11

[3] – سلمان الخطيب ،فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي ، دراسة في ضوء الواقع المعاصر ، بيروت ، ص:75

ويجب على المسلم أن يقدم نفسه على أساس انه يقوم بدور مكمل لادوار الآخرين لا على أساسان يكون بديلا عنهم الأمر الذي يزعج الآخر ويجعله يتوجس منه خيفة من انه مصدر للخطر و الإرهاب فيخسر جهوده المادية والعلمية للقضاء عليه وحتى إن كان يدرك تماما انه يمتلك القدرة على تقديم حاجات الإنسانية، المتعلقة بالجانب الروحي والأخلاقي والتي عجزت حضارة الكم المادي أن تقدمها للإنسانية فطبيعة الإنسان المتمثلة في تعلقه بذاته لا تسمح له بان يفسح المجال أمام من يسعى لإزاحتها من مكانتها التي منحتها إياه الدورة الحضارية في مرحلتها التاريخية الراهنة، لذا فان مجرد شعوره بان مجتمعنا ما يزاحمه لتضييق الخناق عليه لغرض بديله الحضاري وفق معايير وتصورات جديدة فان غريزة الدفاع عن النفس تتحرك بقوة و فعالية لتضرب بعنف وفي كل ما تستطيع الوصول إليه ، لهذا فالإنسان عندما يدلك كل هذه المعطيات و العوامل يستطيع أن يتكيف مع واقعه يقدم للإنسانية إضافة نوعية و إن كان تحركه منه دون علم ولا دراية بالسن التي تحكم الكون عموما و التاريخ و النفس على وجه الخصوص فانه لن يراوح مكانه هذا إن هو استطاع أن يحافظ على بقائه وعندما يحقق المسلم توازنه و يتعقل ذاته سيدرك انه صاحب رسالة سماوية وهو مطالب بتبليغها لغيره من بني البشر[1] .

إلا أن وضعه الحضاري الراهن لا يسمح له بأداء هذا الدور على أكمل وجه ، ولاج لان يتحقق ذلك "لابد للمسلم أولا أن يساهم في بناء مجتمعه كي يستطيع أن يتكلم مع

[1]–بن نبي مالك ،مجالس دمشق ،دار الفكر ،دمشق ،ط(1) ،2005، ص: 70

الآخرين ندا إلى ند و المسلم اليوم لا يتكلم ندا إلى ند بل يتكلم كانسان منبوذ لا يسمعه إلا من وهبهم الله غفوة لا يستمعون بها إلى الفقراء أما الآخرون فهم لا يستمعون للمسلم ثم إن على المسلم أن يستمر في تبليغ دعوة عطل تبليغها منذ سبعة قرون [1]

في حين أن الضمير الإسلامي يربط ربطا وثيقا بين مفهوم الإنسان و الأساس الغيبي المتمثل في تكريم الله لبني آدم، من دون استثناء فالإنسان مكانته في الإسلام كونه كائنا مكرما إذ لا تخضع لمقاييس الكم و الإحصاء والوزن وما شابه ذلك من القيم السائدة في الفلسفة الاستعمارية لبعض الدول الغربية ، فقيمة الإنسان في ضمير المسلم لا متناهية لكونها ذات أساس غيبي مطلق ومن ثمة يجب علينا أن نعيش داخل المجتمع الإنساني وبصفتنا شهداء على الناس شهادة ايجابية، وبصفتنا مبلغين لأقدس رسالة و بصفتنا منقذين للبشرية بما نحمله بين جنوبنا من خيرية وبصفتنا مبلغين لأقدس رسالة وبصفتنا غيورين على الكرامة الآدمية و ينبغي لنا أن نتجدد حتى نرقى إلى الدول الريادي الذي نطمح إليه [2]

لكن المسلم ليس في مقدوره أن يملأ الفراغ الروحي للآخر بذلك التصنع البلاغي وتلك الكلمات الجوفاء الفارغة من أي مضمون، وإنما بوصفه إنسانا معاصرا للناس شهيدا عليهم بالتقي وورع بنزاهة الشاهد الصادق ،الصادق الخبير و الواعي لقيمة شهادته [3]، بحيث

[1]– بن نبي مالك ،مجالس دمشق ، دار الفكر، دمشق، ط(1)، 2005، ص:70

[2] – عبادة عبد اللطيف ،صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي ، عالم الأفكار، الجزائر، ط(2) د(ت)، ص:87

[3] – بن نبي مالك، مجالس دمشق، المصدر السابق، ص:173

لا تنحصر هذه الشهادة في ملاحظة الواقع ولكن في تبديل مجرى الأحداث بردها إلى الخير ، ما ستطاع إلى ذلك سبيلا[1].

فإذا أتى المسلم هكذا في صورة الإنسان المتحضر الذي اكتملت حضارته فالبعد الذي يضيفه الإسلام إلى الحضارة وهو بعد السماء عندئذ ترتفع الحضارة كلها إلى مستوى القداسة أي أن الوجود الذي فقد القداسة في القرنين الأخيرين خصوصا هذا القرن تعود إليه قداسته لان القداسة من الله وحده ولا شيء يعطي القداسة لهذا الوجود غير الله[2] وإذا حقق المسلم هذا فانه يستطيع أن يشيد على أيدي غيره ليقدم لهم العلاج الروحي المستمد من القيم السماوية العليا كونها تحتوي طاقة ذاتية تؤهلها للنفاد إلى جوهر المشكلات النفسية للإنسان ويؤكد مالك بن نبي هذا بقوله «إذا رفعنا المسلم اجتماعيا إلى الحضارة ، نكون قد خلصنا بذلك الإنسان الغربي من العاهة الأخلاقية التي تفصله عن الإنسانية ، وفتحناه بذلك لحوار مجدي بالنسبة إلى فراغه الروحي»[3].

لهذا فدور المسلم اجتماعيا في بداية القرن الواحد و العشرين يجب أن نتصوره طبقا لضرورات داخلية و وضرورات خارجية ،ضرورات إنشاء و تشييد في الداخل وضرورات اتصال و إشعاع في الخارج[4] .

---

[1] – سلمان الخطيب ، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي ،المرجع السابق، ص:247

[2] – سلمان الخطيب ، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي ،المرجع السابق ، ص: 173 ، 174

[3] – عويمر مولود ، مالك بن نبي رجل الحضارة مسيرته و عطاؤه الفكري ، دار الأمل، الجزائر، د(ط)، 2007 ص: 219

[4] – المرجع نفسه ، ص172

سيسير المجتمع نحو الحضارة بسرعة لم نتعود عليها ، مثلما كان حال المجتمع ، المجتمع الإسلامي في بدايته ، إذ أن سر تلك السرعة في صناعة التاريخ يعود إلى تلك الفكرة الروحية التي توجه سلوكيات المسلم[1] الأمر الذي جعله ملتزما اتجاه قضايا أمته من دور شعور بالالتزام الخارجي أي الاجتماعي لأن الدين بوصفه علاقة روحية بين الله و الإنسان هو العنصر الرئيس لميلاد العلاقة الاجتماعية التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان في المجتمع [2].

ويرى مالك بن نبي أن للعنصر الديني أهمية كبرى في تطور المجتمعات إذ انه يتدخل مباشرة في تحديد سمات الشخصية عند الفرد كما يدفع بالفرد في حالة الفعالية للمساهمة في النشاط الاجتماعي المشترك و عندما يتحلل فانه ينشئ جوانبه مرضية في شخصية الفرد يؤكد هذا بقوله «يدخل الدين مباشرة في الشخصية التي تكون الأنا الواعية في الفرد و في تنظيم الطاقة الحيوية التي تضعها الغرائز في خدمة هذه الأنا لدى الرد و كان هذا النشاط المشترك للمجتمع خلال التاريخ»[3] .

وبالإضافة إلى التأثير البارز للعنصر الديني على حياة الفرد إذ يجعل من الوقت الذي ليس سوى مدة زمنية مقدرة بساعات تمر وقتا اجتماعيا مقدرا بساعات عمل، ومن التراب الذي يقدم بصورة فردية مطلقة غذاء الإحسان في صورة استهلاك بسيط مجالا مجهزا

[1]– الأخضر شريط، "فلسفة عالم الأشخاص و البناء الحضاري عند مالك بن نبي "، دار بونة ، العدد 4 ،5 يونيو 2006 ص:148

[2] – السعد نورةخالد ،التغيير الاجتماعية في فكر مالك بن نبي ، السعودية ، ط(1)، 1997، ص:144

[3] – بن نبي مالك ، ميلاد مجتمع ، دار الفكر، دمشق ، ط(3) ، 1986 ، ص:72

مكيفا تكييفا فنيا يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة تبعا لعملية الإنتاج[1] تظهر الوظيفة التركيبية للدين في كونه يؤدي إلى كافة العمليات التغيرية الاجتماعية المهمة في الإنسان و الوقت و التراب وما يتبعها من معطيات نفسية تتحقق من خلال حركة المجتمع و انتقاله من مرحلة السكونية إلى المرحلة الديناميكية الحضارية إذ أن العناصر الثلاثة تظل في حركة سكونية إلى أن يتدخل الدين بصفة قوة أساسية تحدث التآلف و التركيب الحضاري .

أهم سبب جعل الدين عاملا أساسيا من عوامل التغيير هو انه بين الإنسان مركب من وجوديين ، احدهما زمني و الأخر نفسي و الوجود الأول مرتبط بالحاجات المادية للإنسان ، أما الوجود الثاني لديه طابع معنوي روحي ، ويعتبره جوهر الإنسان وحقيقته وهذا الوجود بالذات يرتبط بقوة الدين فان كل مشروع نهضوي يهمل احد الجانبين سيؤدي إلى الفشل إذ أنت ترى إن كل ما يغير النفس يغير المجتمع ، ومن المعلوم أن أعظم التغييرات و أعمقها في النفس قد وقعت في مراحل التاريخ مع ازدهار فكرة دينية، ولو أننا استطعنا أن نتتبع في دقة عمل الفكرة الدينية إبان ولادتها فربما إصابتنا الدهشة لما نشهده في عملنا من جوانب غير متوقعة[2] .

وهذا ما يفسر دخول الدين في الجدلية النفسية و الاجتماعية يمكن لكل مجتمع مهدد بالانهيار أن ينقذ نفسه بهما وهما الدين والحضارة إذ يعتبر الدين «الوسيلة الوحيدة لديه

[1] – السعد نورةخالد ،التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي،المرجع السابق، ص: 273 ، 274

[2] – مالك بن نبي تأملات، المصدر السابق، ص: 80

ليسير إلى مأمنه بل و المأمن بالنسبة إلى سائر المجتمعات فالأمر لا يختلف من مجتمع إلى آخر فالمأمن هو الحضارة »[1].

كما يوضح الطيب برغوث هذه الفكرة بقوله «إن الإسلام عند مالك بن نبي هو الثورة الخالدة في يد المسلم ، في كل الظروف و في جميع المراحل التي يمر بها في حياته ، فما دامت هذه الثورة موجودة فان المسلم يظل مالكا للقوة الحقيقية للنهوض الحضاري وعلى المسلم حقيقة الإسلام لأدرك مقدار ما يملكه من قوة فكرية وروحية و إرادته وأخلاقية استثنائية عجيبة ، هو مصدر وأم بقية الثورات الأخرى»[2] .

وإذا علمنا أن الدين الإسلامي مثلا يدعو ويلح في دعوته هذه على يقم التسامح الإيحاء والسلم والعدل و المساواة و التعاون والعلم والعمل و العزة وانه في الوقت نفسه يشدد على كل ما يتنافى مع هذه القيم الأخلاقية السامية علمنا عندئذ الطبيعة السامية لهذا الدين و تعرفنا على ثقل تأثير في النفس و المجتمع[3] .

ولتحقيق هذا لابد من ضرورة إرجاع الفاعلية و القوة الايجابية إلى العقيدة .

ومن خلال هذا الوضع يرى بن نبي انه لابد من تأسيس علم جديد يعيد "للعقيدة فعاليتها وقوتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي و في كلمة واحدة أن مشكلتنا ليس في أن

[1] – السعد نورة خالد ، التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، المرجع السابق، ص: 284

[2] – برغوث الطيب ، محورية البعد الثقافي في إستراتيجية التجريد الحضاري عند مالك بن نبي، دار قرطبة ،الجزائر ، ط(2) ، 2004 ، : 53

[3] – محمد بغدادي ،التربية والحضارة بحث في مفهوم التربية وعلاقتها بالحضارة ، عالم الأفكار ،الجزائر ،د(ط)، 2006 ص: 73

يبرهن للمسلم على وجود الله بقدر ما هي أن نشعره بوجوده ونملأ به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة[1] .

وهذا العلم الجديد لابد أن يحدث تغييرا جذريا في الجانب النفسي للمسلم حتى يتخلص من العقد والرواسب الموروثة من عهد ما بعد الموحدين، إذ لا يمكننا أن نحقق عودتنا الحضارية بإنسان مثقل برواسب الماضي وهذا لا يتم في نظر مالك بن نبي إلا بواسطة علم لم يظهر بعد إذ يقول :« وتغيير النفس معناه إقدراها على أن تتجاوز وضعها المألوف و ليس هذا من شأن علم الكلام بل هو من شأن منهاج التصوف أو بعبارة أدق من شأن علم لم يوضع له اسم بعد ويمكن أن نسميه تجديد الصلة بالله» [2]

فيجب على المسلمين الشعور بالمسؤولية اتجاه مصير أمتهم، و يستعملوا العقيدة الإسلامية كأداة اجتماعية من جديد لأجل إصلاح حال الأمة و يتبين لنا مما سبق "انه ليس المطلوب الدفاع عن أصالة الإسلام ، بل مجرد إعادة فعاليته إليه ، بتحريكهم قوة إنتاجية. [3]

[1] – بن نبي مالك، وجهة العالم الإسلامي ، ،دار الفكر، دمشق، د(ط)، 1986، ص: 118

[2] – المصدر نفسه : ص:54

[3]– بن نبي مالك ،مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر:بسام بركة واحمد شعبو إشراف وتقديم عمر مسعاوي ، دار الفكر،دمشق، د(ط)، 1988، ص: 118

## المبحث الثالث : علاقة الظاهرة القرآنية بالذات المحمدية

للمعارف المحترمة مصادر معينة لا يعول على ما وراءها ، فإذا كان مصدرها إنسانيا فيجب أن نتبع من ثنايا المنطق التجريبي آو الرياضي ، كما هو حاصل الآن في علوم الكون و الحياة و فيها يتصل بأحوال المادة وشؤون الناس ،أما إذا كانت هذه المعارف متصلة بما وراء المادة ،أي بما يقتصر المنطق التجريبي و الرياضي عن مناله –فان الوحي الصادق هو سبيلها ولا يقبل غيره فيها ، ومن ثمة فالكلام عن الله و عن صفاته وعن حقوقه لايعتمد فيه إلا ما جاء على سنة الأنبياء وحدهم[1] .

هؤلاء الرجال المصطفون من أبناء آدم تتلقفهم العناية من نشأتهم الأولى لتقيهم أوضاع الطبيعية البشرية و ترقى بهم صعدا في مدارج الكمال ، وترشح قلوبهم الكبيرة لاستقبال ما يفد به الملأ الأعلى عن حضرة القدس ، فإذا الحكمة تفيض من ألسنتهم والأسوة تقتبس من أعمالهم ، والنزاهة المطلقة تقترن بأحوالهم واتجاهاتهم ، والوحي الذي تشرق به المعرفة على قلوب الأنبياء أنواع و مراتب ، يبدأ بالرؤيا الصالحة في النوم ، ورؤيا الأنبياء ليست من أضغاث الأحلام التي تترجم بها النفس عن رغباتها المكبوتة في صور مهوشة متقطعة ، كما يحدث لجماهير الناس ! كلا ، فان الكمال البشري الذي وصل إليه

[1] – الغزالي محمد ، عقيدة المسلم، دار الهناء للطباعة و النشر والتوزيع ،الجزائر ، د(ط) ، د(ت)، ص: 183

النبيون يجعل قلوبهم يقظة ، ولو نامت أبدانهم بعكس الدهماء الذين تنام قلوبهم ليلا ونهارا ، فهي في غفوة لا تصحو ، ولو نشطت أبدانهم وراء أغراضها الصغيرة [1].

ومنذ إبراهيم عليه السلام تتابع أفراد مدفوعون بقوة لا تقاوم ، جاؤوا يخاطبون الناس باسم (حقيقة مطلقة ) يقولون أنهم يعرفونها معرفة شخصية و خاصة بوسيلة سرية هي الوحي ، ويقول هؤلاء الرجال أنهم مرسلون من الله ليبلغوا كلمته إلى البشر هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يسمعوها مباشرة ، وخصوصية هذا الوحي و مضمونه هما ، الإمارتان المثبتتان لرسالة النبي هذا إلى أنها هي السمة المميزة للنبوة وهي الحقيقة الجوهرية في مذهب التوحيد وبرهانه الواقعي[2] .

إن مبدأ النبوة يعرض نفسه بفضل شاهد وحيد –النبي –بوصفه ظاهرة موضوعية مستقلة عن الذات الإنسانية التي تعبر عنه ، و المشكلة على وجه التحديد هي معرفة ما إذا كان الأمر يتعلق بأشياء ذاتية محضة أو بظاهرة موضوعية كالمغناطيسية .

مثلا ، إن وجود المغناطيسية ينكشف لنا بواسطة الإبرة الممغنطة التي تجسم لنا كما وكيفا الحقائق النوعية ، لكننا لا نستطيع ملاحظة ظاهرة النبوة إلا من خلال شهادة النبي و في محتويات رسالته المتواترة المنزلة ، فالأمر يتعلق إذن بمشكلة نفسية من ناحية وتاريخية من ناحية أخرى ، ولو أن نلاحظ أولا وقبل كل شيء أن بعث نبي ما ليس حدثا

[1] – الغزالي محمد ،المرجع السابق ، ص: 185

[2] – بن نبي مالك ، الظاهرة القرآنية ، المصدر السابق، ص:16

فردا ليكون غريبا نادرا ، بل هو على عكس من ذلك ظاهرة مستمرة تتكرر* بانتظام بين قطبين من التاريخ منذ إبراهيم إلى محمد صلى الله عليه وسلم و استمرار مبدأ وجودها بشرط التثبت من صحة هذا الوجود بالوقائع المتفقة مع العقل ومع طبيعة المبدأ[1].

إن حياة الأنبياء و تاريخهم يمنعاننا من أن نعدهم مؤمنين مندفعين دون تعقل وبكل بساطة إلى الخوارق و المعجزات وأن نحكم بأنهم معتوهون بأهل خلقتهم ، احتلت عقولهم و أبصارهم بنقائض مزمنة ، فهم يمثلون –على العكس – الإنسان في أسمى حالات كماله البدني و الخلقي و العقلي ، وشهاداتهم الاجتماعية تحظى في نظرنا بالثقة التي تستحقها وإذن فمن الواجب في المقام الأول أن نلجأ إلى هذه الشهادة لكي نثبت القيمة التاريخية للوقائع التي نخضعها لنقدنا ، ثم يبقى علينا أن نحلل مجموع هذه الوقائع في ضوء العقل المتحرر من ربقة الشك المطلق الذي لا هدف له[2] .

يضاف إلى ذلك أن هذا الذي أوحى إليه هذا الكتاب اجتمعت في نفسه كل خلال الخير التي يستحيل أن يتصور العاقل معها إدعاء أو كذبا أو مبالغة ، من الصدق ، الأمانة ، الحلم ، الصبر ، المروءة ، العدل ، النزاهة ، التواضع ، الشجاعة ، الحياء و الجود

*– يتصل بهذا المعني الآية الكريمة ( ) الأحقاف، الآية: 9

[1]– بن نبي مالك ، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص: 87

[2] المصدر نفسه، ص: 11

و الرحمة ، حتى كان له من كل هذه الصفات قوة تخر أمامها الجبابرة ونور ساطع سار ضوئه الداني و القاصي ودليل قاطع بصدق نبوته على مر العصور و الدهور[1].

أما من يؤمن بأن للعالم خالقا مدبرا و صانعا حكيما و فاعلا مختارا ، فلا مناص له من الإيمان بأن القران كلام الله تعالى أوحى به إلى خاتم أنبيائه ليهديهم إلى أقوم طريق ويكون بها قوى و أفضل مجتمع عرفه التاريخ[2] .

ومع ذلك فان النبي –ذات– يمكن أن تحدثنا عن حالتها الداخلية و يمكن أن نبرهن عليها أولا لاقتناعه وتحققه الشخصي ، وثانيا من أجل ما يسمى بالاقتصاد الخارجي أو السياسة الخارجية لرسالته ، فإذا حدث أن جاءت نبوة فيجب أولا أن تعد سببا يثير الاضطراب في ذات إنسانية ، ويدفعها دفعا لا سبيل إلى مقاومته نحو رسالة ما ، لا تتضح دوافعها وأهدافها بوصفها حقائق محددة لهذه الذات[3] .

و لهذا فإن معرفة النبي الظاهر أساس لأي دراسة نقدية للموضوع ، فيوسف و أرمياء ومحمد صلى الله عليه وسلم أفراد أرادوا أولا أن يتملصوا طواعية من دعوة النبوة فقاوموا ولكن دعوتهم استولت عليهم أخيرا فمقاومتهم تدل على التعارض بين اختيارهم و الحتمية

[1] – محمد الصالح الصديق ، البيان في علوم القرآن ،المرجع السابق ،ص: 78

[2] – المرجع نفسه ، ص:78

[3] – بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص: 92

التي تطوق إرادتهم ، وتتسلط على ذواتهم و في هذه الدلائل قرينة قوية للنظرية الموضوعية على الحركة النبوية[1].

لا يمكننا الاستغناء في دراسة الظاهرة القرآنية عن معرفة الذات المحمدية معرفة صحيحة بقدر الإمكان وهذه المعرفة ضرورية هنا ضرورة تحديد الأبعاد الثلاثة في دراسة الخصائص التحليلية لمنحنى هندسي ،فالظاهرة التي ندرسها مرتبطة في الواقع بذات محمد صلى الله عليه وسلم ولكي نخرج بنتيجة عن طبيعة هذا الارتباط لابد أن نخطو خطوة أولى لنضع مقياسا أول مدعما بكل العناصر الخاصة بتحليله (الذات) التي هي موضوع القضية و شاهدها و قاضيها[2].

ولكننا لا نرى من الضروري أن نعلق في متحف جد غني صورة جديدة للنبي ، فإن لدى القارئ مندوحة ليطلع على المؤلفات العديدة في سيرته ، إذا هو أراد أن يشبع رغبته في معرفة الصورة الباهرة لهذا الإنسان ، سواء في تلك المؤلفات التقليدية كابن إسحاق و ابن مسعود ، أم في دراسات تراجم الرجال التي أخرجتها المطابع الحديثة لـ(دينيه Dinet) و درمنجهام Dermenghem ... الخ

[1] – بن نبي مالك ، الظاهرة القرآنية ، المصدر السابق، ص: 92

[2] – المصدر نفسه، ص: 108

أما نحن فلا نهتم إلا بتخطيط صورة نفسية لا تهمنا فيها التفاصيل التاريخية ، إلا بقدر ما تعنينا على ما نريد تخطيطه ، وهكذا تنقسم حياة النبي صلى الله عليه وسلم في نظرنا إلى مرحلتين متتابعتين :

الأولى : عصر ما قبل البعثة وهو يمتد إلى أربعين سنة

والثانية : العصر القرآني و هو يضم كل زمن الوحي ، وهو عبارة عن ثلاثة و عشرون عاما ، و مع ذلك فكل من هاتين المرحلتين مطبوعة بحدث رئيسي يعد فاصلا يقسمهما إلى مرحلتين ثانويتين :

فزواج خديجة رضي الله عنها يعد فاصلا خطيرا فيما يتعلق بمرحلة ما قبل البعثة فنحن نجد نبي المستقبل ينزوي في خلوة روحية ، حتى تلك الليلة الخالدة ...ليلة الوحي* و الهجرة هي الفجوة التي تفصل زمن تبليغ الدعوة فحسب ،عن زمن الانتصارات الحربية و السياسية التي فتحت الإمبراطورية الإسلامية الفتية باب التاريخ[1].

وسنبحث الآن بإيجاز هاتين الحقيقتين المتتاليتين ، موردين في كل منهما الأحداث التي تطبع شخصية النبي و التي انطبعت بشخصيته كي نكشفها بقدر الإمكان عن طبيعة الارتباط بين الذات المحمدية و الظاهرة القرآنية .

*– نحن، حقيقة– تنقصنا الوثائق عن الطريقة التي كان النبي في تلك الحقبة يقسم وقته بمقتضاها بين واجبات الروح و حاجات الدنيا

[1]– بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص: 109

ومن المعلوم بناء على وجهة نظر "هيجل" التي تعتمد على ملاحظة الظواهر إننا إذا وجدنا حالة نبوية خاصة لا تفسر شيئا ولا نثبته ، فإن تكررها في ظل بعض الشروط يبرهن على الوجود العام للظاهرة بطريقة علمية ،ويبقى علينا أن نبحث عن ماهية هذا التكرار لكي نستخلص من صفاته الخاصة القانون العام الذي يمكن أن يسيطر على الظاهرة في جملتها فليس هناك من سبب وجيه نسلم مقدما بالنبوة بالمعادلة الشخصية* للنبي وهو يقرر أن الأمر يتعلق أو يمكن أن يتعلق بالأعصاب الثائرة ، والخيال الشاطح ، والفكر الذي أزاغته ظواهر ذاتية محضة[1].

ولئن كان القرآن هو الكتاب الذي يصور للإنسانية آفاق كمالها إن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الرجل الذي حقق في شخصه و في آثاره أعلى ما تنشده الإنسانية من قبل فقد رفع شأن "الضمير" عندما أعلن أن التقوى تستقر في القلوب الزكية ولا تغني عنها قشور العبادات ، وثبت قيمة العقل وجعله أصل دينه وأسس عليه المسلمون حضارة متشعبة الثقافات والفنون، وصلت ما انقطع من تراث الإنسانية الفكري ، وكانت البذور المنتجة التي أورثت العالم حضارته الحديثة ثم إن هذا النبي صلى الله عليه وسلم هو المحور الأول للإنسان ، والمقرر الأول لحرية العقل و الضمير ...لقد جعل الكون كله مسخرا لنشاط الإنسان الذهني و البدني ، وجعل الإنسان سيدا في نفسه ، سيدا لعناصر هذا العالم ، عبدا لله فقط فلا سلطة البتة لدها قين السياسات و الديانات ونبي الإسلام عربي ولكن الدين

*– المعادلة الشخصية هي مجموعة من الطاقات و الإمكانيات الشخصية تكون (الأنا) المترجم

[1] – بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص: 87 ، 88

الذي جاء به لا جنسية له ، وأي جنسية كدين يخاطب العقل حيث كان ، ويبني أدلته على النظر في فجاج الأرض والسموات[1] .

ولئن كانت العبقرية امتداد في موهبة واحدة ، أو في جملة من المواهب ، فإن النبوة امتداد في المواهب كلها ، واكتمال عقلي و عاطفي و بدني و عصمة من الدنايا و رسوخ في الفضائل وعراقة في النبل و الفضل :

هم الرجال المصابيح الذين هم كأنهم من نجوم حية صنعوا

أخلاقهم نورهم من أي ناحية أقبلت تنظر وفي أخلاقهم سطعوا

فالذين يرشحون للنبوة يصطفون لها اصطفاء ، قلوب نقية تربطها بالملأ الأعلى أواصر الطهر و الصفاء ، وعقول حصيفة ناضجة لا تتخدع عن حقائق الأشياء ولا يصيبها ما أصاب كبار الفلاسفة من شرود و عماء[2] .

وقد جعل سبحانه و تعالى التصديق برسله كلهم ركنا في الدين ، وقرن أسماءهم بذاته المقدسة فأصبح الإيمان بهم متمما للإيمان به قال تعالى ↓ ءامن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل ءامن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ↑ [3].

[1] – بن نبي مالك ، الظاهرة القرآنية ، المصدر السابق، ص:200

[2] – المصدر نفسه ، ص: 204

[3] – سورة البقرة،الآية: 285

والإيمان بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الشطر الثاني من شهادة الإسلام لا يصح إيمان إلا به و إنما كان الإيمان بالنبوات هذه المنزلة ، لان معرفة الله على وجهها الصحيح وفهم ما يريده لعباده ، ويطالبهم به ، إنما يكون عن طريقهم وحدهم و الارتباط بالوحي الذي بشروا به ، و الأسوة التي تؤخذ منهم ومن ثمة يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم "لن يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به ويقول تعالى **فلتسألن الذين أرسل إليهم ولتسألن المرسلين فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين** ↑[1]

فمتى ميزنا بين هاتين الوظيفتين : النبوة وإدعاء النبوة بناء على صفاتها التاريخية و مبادئها الفلسفية ، فبديهي أن نميز بين العاملين الذين يؤديانهما وهما: النبي ومدعي النبوة فمهمة الأول في سمائها الخالصة ، إن لها مبدأ وثيق الصلة بالأفكار العامة للحركة النبوية و لها زمن يتناسب مع عرض هذا المبدأ وتبليغه وهذه حالة "عاموس" الذي عاد يرعى كباشه في "تكوا" في هدوء بعد تبليغ دعوته و تحذيراته المروعة ، على حين لا يبشر مدعى النبوة بمبدأ شخصي بالمعنى الصحيح ، بل يكفي إما بأن يطنب في شرح رسالة النبي و إما أن يبشر بنوع من المعارضة في مقابلة رسالة النبي[2] .

وتتميز خصائص النبوة عند مالك بن نبي بما يلي :

[1] – سورة الاعراف،الآية: 6-7

[2] – بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية،المصدر السابق، ص: 94

أولا : صفة القهر النفسي الذي يقصي جميع العوامل الأخرى للذات ، بإلزام النبي في النهاية بسلوك معين و دائم .

وثانيا : حكم فذ على أحداث المستقبل يمليه نوع من القهر الذي ليس له أي أساس منطقي.

وثالثا: استمرار مظاهر السلوك النبوية ، وتماثلها الظاهر و الخفي عند جميع الأنبياء .

هذه الصفات المميزة ، لا يمكن أن تلقى ببساطة تفسيرا نفسيا ، قائما على الحوادث التي تخضع لها ذات النبي ، تلك الذات التي يبدو أنها لا تبرز هنا إلا في مجرد صورة مترجم مرهف الحس –متمتع أحيانا – لظاهره مستمرة تلزمه بقانونها ، كما ألزمت ذوات جميع الأنبياء كما يبت المجال المغناطيسي ، اتجاه جميع الإبر الممغنطة[1] .

فمن الصعب أن نفسر ظاهرة ـ وهذا وصفها ـ تفسيرا ذاتيا شخصيا ، فهناك لغز فسره النقد المولع بإرجاع كل شيء إلى أفكار ديكارت مهما كلف الأمر تفسيرا عجيبا هو : أن النبي شخص مزدوج مزود بذاتين تسأل أحداهما الأخرى ، وتتأثر بإنكشافاتها ولكنهم لم يهتموا بتحديد موضع هذه الذات الثانية في الفرد الذي يعده علم النفس التحليلي منقسما إلى ميدانين : اللاشعور و الشعور ، فهل الذات الثانية موضعها الشعور أو اللاشعور ؟ أو كلا المجالين في وقت واحد ...؟

ألم يقل أحدا شيئا كهذا وهل هذا يستدعي منا فرضا آخر؟

[1]– المصدر نفسه ، ص: 99

فإذا كانت الذات الإنسانية الواحدة لا تقدم تفسيرا كافيا للظاهرة ، فلن يتحقق هذا بمزاوجة هذا الكيان النفسي أو تضعيفه ، لكي يقدم للظاهرة تفسيرا أفضل[1] وكما حلت الأزمة الأولى عند النبي بصورة غير متوقعة ،فان حل هذه الأزمة يبدو أنه فاجأه أكثر من ذي قبل ، و بعبارة أخرى أرهقه ، وأن مفاجأته في المرة الأولى للوحي وعناءه وعجزه هذه المرة أمام هذا التكليف غير المتوقع الذي تلقاه في صورة أمر ، ليسجلان في نظرنا حالتين نفسيتين ضرورتين خاصة لدراسة الظاهرة القرآنية بالنسبة للذات المحمدية ، وبوسعنا أن نذكر أن موقف هذه الذات بين الأزمتين و بين حلي المشكلة لم يكن مطلقا مطبوعا بأمل القيام بدعوة ولكنه كان يبحث فقط عن فضل لمسه من الله منذ الوحي الأول[2].

ونحن نرى أن هذا الجهد يؤكد في الواقع بصورة قاطعة استقلال الظاهرة القرآنية عن ذات موضوعنا (النبي) .

وما كان لنا بداهة أن نقرر أن الحل الثاني للأزمة النفسية يمكن أن يتأخر لو كان مصدره هو (اللاشعور) لدى إنسان لم يسع إلى إخماد الظاهرة و كبتها في نفسه ، بل إنه على العكس قد وجه كل إرادته وكل وجوده لتيسير ظهورها، هذه التفاصيل النفسية تبرز تماما العزم النهائي عند محمد على قبول دعوته بوصفها تكليفا يأتيه من أعلى انه يقبلها في

[1] – – بن نبي مالك ، الظاهرة القرآنية ، المصدر السابق، ص: 100

[2] – المصدر نفسه، ص: 128

الواقع ، ولن يتخلى عنها أبدا ، حتى لو تعرض فيها بعد لسخرية أطفال مكة و لو آذاه وانذره وفتك به سادة قريش كأبي لهب و غيره من المشركين[1].

لا شيء سيرغمه على التخلي عنها ، لا المصالح المضيعة لأسرته، ولا توسلات عمه الوقور أبي طالب ، عندما يضغط عليه أشراف مكة كيما يضع حدا لفضيحة ابن أخيه ولا اقتراحاتهم عليه أن يتولى اسمي منصب في إدارة المدينة هذا كله لا يحول الرسول عن طريقة الثابت إلى الآبد منذ حل الأزمة الثانية[2].

إن محمدا أميّ ليس لديه معرفة البشر سوى ما يمكن أن يمنحه له وسطه الذي ولد فيه وفي هذا الوسط الفروسي الوثني البدوي ، لا مجال مطلقا لمشكلات الاجتماعية و الغيبية الميتافيزيقية ، فإن معارف العرب عن الحياة الاجتماعية و الفكرية لدى الشعوب الأخرى ليست بذات قيمة ، إذا ما رجعنا إلى الشعر الجاهلي الذي يعد مصدرا قيما للمعلومات في هذا الموضوع[3] و الحق أن الشك الذي عاناه النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي اضطره إلى أن ينكب على حالته الخاصة و يواصل تفكيره و معالجته التي ستنتهي باليقين النهائي ، وفي هذا التحول نرى أثر التربية السامية ، التي تعين رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يتحقق تدريجيا في نفسه من حقيقة الظاهرة القرآنية يعينه على ذلك تكيف مستمر لضميره الواعي و كأنما أريد إعداده منهجيا للاقتناع الضروري اللازم لدعوته

[1] – بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق، ص: 129

[2] – المصدر نفسه ، ص: 129

[3] – المصدر نفسه، ص: 154 –155

فأبلغه الوحي منذ البداية خصائص هذه الدعوة العظمى ، كما تدل عليها الآية **إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا** [1]

إن علم الدراسات الإسلامية الذي يتناول هذه الدراسات في عمومها بفكر مغرض ، لم يعالج مشكلة هذا الاقتناع الشخصي على الرغم من أنها في المقام الأول من الأهمية لتفهم الظاهرة القرآنية، إذ هو يمثل مفتاح المشكلة القرآنية حين نضعها على البساط النفسي للذات المحمدية.

وغني عن البيان أنه لكي يؤمن محمد و يستمر على الإيمان بدعوته يجب أن تقرر حسب تعبير (انجلز) أن كل وحي لابد أن يكون قد مر (بوعيه)* وإتخذ في نظره صورة مطلقة ، غير شخصية ربانية جوهرها روحي وفي الطريقة التي تظهر بها [2].

إن رحابة الموضوعات القرآنية و تنوعها لشيء فريد ، طبقا لتعبير القرآن نفسه **ما فرطنا في الكتاب من شيء** [3] فهو يبدأ حديثه من ذرة الوجود المستودعة باطن الصخر و المستقرة في أعماق البحر [4] إلى (النجم الذي يسبح في فلكه نحو مستقره المعلوم ) [5] وهو

---

[1] – سورة المزمل، الآية : 5

[2] – بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، ص: 160

*– فريديريك انجلز (لودفج فرباخ ونهاية الفسلفة الكلاسيكية) ، ص:38، الطبعة الاجتماعية باريس يقول "عن الإنسان المنعزل تمر كل القوى المحركة لنشاطه بعقله لكي تتحول إلى عوامل ملزمة لإرادته تدفعه إلى العمل و النشاط "

[3] – سورة الأنعام، الآية: 38

[4]– يشير المؤلف إلى قوله تعالى (

لقمان، الآية :16

[5] – يشير إلى قوله تعالى ( ) يس ،الآية: 40

يتقصى أبعد الجوانب المظلمة في القلب الإنساني فيتغلغل في نفس المؤمن و الكافر بنظرة تلمس أدق الانفعالات في هذه النفس ، وهو نتيجة نحو ماضي الإنسانية البعيد ونحو مستقبلها ، كيما يعلمها واجبات الحياة ، وهو يرسم لوحة أخاذة لمشهد الحضارات المتتابعة ثم يدعونا إلى أن نتأمله لنفيد من عواقبه عظة واعتبارا .

أمام هذا المشهد العظيم وقف الفيلسوف (توماس كارليل) فما تمالك عنه ،بل انبعث من أعماقه صرخة إعجاب بالقرآن فقال :« هذا صدى متفجر من قلب الكون نفسه » وفي هذه الصرخة الفلسفية نجد أكثر من فكرة جافة لمؤرخ ،نجد بعض ما يشبه الاعتراف التلقائي لضمير إنساني سام بهت أمام عظمة الظاهرة القرآنية وأنّ العقل الإنساني ليقف حائرا أمام رحابة القرآن و عمقه ، إنه بناء فريد ذو هندسة ونسب ففيه تتحدى المقدرة المبدعة لدى الإنسان[1] .

إن عبقرية الإنسان تحمل بالضرورة طابع الأرض ، ليخضع كل شيء لقانون المكان و الزمان بينما يتخطى القرآن دائما نطاق هذا القانون ، وما كان لكتاب بهذا السمو أن يتصور حدود الأبعاد الضيقة للعبقرية الإنسانية، من المقطوع به أنه لو أتيح لأحد الناس أن يقرأ قراءة واعية يدرك خلالها رحابة موضوعه ، فلن يمكنه أن يتصور الذات المحمدية إلا مجرد واسطة لعلم غيبي مطلق .

ولكي تصح نسبة هذه الملاحظات إلى النبي يجب أن نثبت أن :

الأفكار المحمدية = الأفكار القرآنية

[1] – بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق ، ص: 196

وربما تصح هذه المعادلة لو أننا تحققنا من أن موضوع آية ما يمكن أن يصدر عن مجال ذات محمد و أن يندمج في نقس فكره ، وأن ينبعث عن تجربته و أن ينتزع من محيط بصره ، وفي هذه الحالة قد تفصح هذه المعادلة بترتيبها المباشر آنفا من علاقة سببية لتكون الأفكار المحمدية سببا في حصول الأفكار القرآنية .

وإذا ثبت العكس تصبح المعادلة مستحيلة إذ تنتفي العلاقة السببية وهو ما نسعى إلى إثباته هنا، وعليه فنحن نتصور تصورا كاملا طبيعة الفكر لدى إنسان فني في المشكلة الدينية و المشكلة الغيبية والمشكلة الروحية خاصة ، وربما تصورنا أيضا اطراد الوقائع وسبب حدوثها ، والكون وعلة كونه ، وينبغي أيضا أن يربط بين الخالق والمخلوق برباط الاسمان ، وأن ينصب للكائنات و الأشياء سلما من الدرجات الخلقية[1] .

إن القرآن يتجه بالخطاب إلى البشر سكان الأرض ، أولائك الذين يهمهم و لا ريب أن يعرفوا كل شيء عن الأرض التي تحكمهم ، فما هو شكل هذا الكوكب المظلم ؟ ... و للإجابة عن هذا السؤال لا يسلك القرآن مسلكا علميا ، فهو ليس كتابا في وصف الكون وأنّه كان كذلك لحوى تلك الأفكار التخمينية التي كانت تقول بها النظرية البطلمية* théorie ptelmienne الشائعة آنذاك .

أو ليس عجبا مذهلا أن تضع الفكرة الموحاة هكذا دائما معالمها المضيئة أمام الفكر العلمي حتى كأنها تصف له الطريق ؟ !! وهل يستطيع أحد أن يقول أن معالم كهذه قد

[1] – بن نبي مالك ، الظاهرة القرآنية ، المصدر السابق، ص: 283

انبثقت من عقل أمي وبأن هناك بالتالي معادلة بين الأفكار المحمدية والأفكار القرآنية ؟ [1]!!

وعندما يحقق المسلم توازنه و يتعقل ذاته سيدرك أنه صاحب رسالة سماوية ، وهو مطالب بتبليغها لغيره من بني البشر ، إلا أن وضعه الحضاري الراهن لا يسمح له بأداء هذا الدور على أكمل وجه ، لأجل أن يتحقق ذلك لابد للمسلم أولا أن يساهم في بناء مجتمعه كي يستطيع أن يتكلم مع الآخرين ندا إلى ند ، والمسلم اليوم لا يتكلم ندا إلى ند بل يتكلم كإنسان منبوذ إلا من وهبهم الله غفوة لا يستمعون بها إلى الفقراء أما الآخرون فهم لا يستمعون للمسلم ، ثم إن على المسلم أن يستمر في تبليغ دعوة عطل تبليغها منذ سبة قرون[2] .

فالحضارة لا تنبعث –كما هو ملاحظ – إلا بالعقيدة الدينية * و ينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها ولعله ليس من الغلو في شيء أن يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية و في البرهمية نواة الحضارة البرهمية ، فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعا ومنهاجا أي هي على الأقل تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي ، بالمعنى العام فإنما

* – بطليموس هو الذي افترض أن العارض مركز الكون التي تدور حوله الشمس و الكواكب الأخرى وقد حلت محل نظرية كوبرنيك السائدة الآن

[1] – بن نبي مالك الظاهرة القرآنية،المصدر السابق، ص: 293

[2] – بن نبي مالك ،مجالس دمشق،المصدر السابق ، ص: 69

*– إننا نأخذ هنا هذه العبارة بمعناها العام :كما يعبر عنها أيضا فالترشوبرت ( waltar – schubart) في كتابه "أوربا و روح الشرق "

قدر للإنسان أن لا تشرق عليه شمس الحضارة ألا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية ،أو بعيدا عن حقبته إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته ، وتتفاعل معها[1] .

ومن المعلوم أن جزيرة العرب مثلا لم يكن بها قبل نزول القرآن إلا شعب بدوي يعيش في صحراء مجدبة يذهب وقته هباء ، لا ينتفع به لذلك فقد كانت العوامل الثلاثة الإنسان التراب ،والوقت راكدة خامدة ، وبعبارة أصح مكدسة لا تؤدي دورا هاما في التاريخ ، حتى إذا ما تجلت الروح بغار حراء كما تجلت من قبل بالوادي المقدس أو بمياه الأردن نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكدسة حضارة جديدة ، كأنما ولدتها كلمة (اقرأ) التي أدهشت النبي الأمي و أثارت معه وعليه العالم فمن تلك اللحظة وثبت القبائل العربية على مسرح التاريخ حيث ظلت قرونا طوالا تحمل للعالم حضارة جديدة ، وتقوده إلى التمدن و الرقي [2].

ومن هنا ندرك سر دعوة القرآن الكريم المؤمنين إلى التأمل فيما مضى من سير الأمم وذلك حتى يدركوا كيف تتركب المخصبة من الإنسان و التراب و الوقت [3].

[1] – بن نبي مالك ، شروط النهضة ، تر :عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين، در الفكر، لبنان ، ط(03)، 1988 ص:51

[2] – بن نبي مالك، شروط النهضة، المصدر السابق ص:51

[3] – المصدر السابق، ص: 52

إننا لكي نتوصل إلى التركيب الضروري كحل للمشكلة الإسلامية أعني مزج الإنسان و التراب و الوقت ، يجب أن يتوفر لدينا مؤثر الدين الذي يغير النفس الإسلامية أو كما يقول كيسر لنج "يمنح النفس مبدأ الشعور ".

فهل يمكن تحقيق هذا الشرط في الحالة الراهنة للشعوب الإسلامية ؟

إن التردد في الإجابة عن هذا السؤال بالإيجاب لا يدل إلا على جهل بالإسلام وبصفة عامة بتأثير الدين في الكون ، فإن قوة التركيب لعناصر الحضارة خالدة في جوهر الدين وليس ميزة خاصة بوقت ظهوره في التاريخ ، فجوهر الدين –حسب العبارة الشائعة –مؤثر صالح في كل زمان و مكان [1].

فالإنسان رجل الفطرة وفي هذا العنصر يلفت نظرنا إلى أن هناك :

رجل المدينة : فهو رجل الندرة و القلة في كل شيء قد تغلغلت في نفسه دواعي الانحطاط ...فهو يحمل روح الهزيمة بين جوانحه، وهو دائما في منتصف الطريق و في منتصف تطوره لا يعرف كيف يصل إلى هدفه ، إذ هو ليس نقطة الانطلاق كرجل الفطرة و لا نقطة الانتهاء كرجل الحضارة .

[1] – المصدر نفسه ص: 58

رجل الفطرة : هو رجل البادية راع بلا مواشي و فلاح بلا محراث ، الصنفان من الناس يجب القيام بتعديل أفكارهما و الاتجاه نحوهما بالرماية ليصبحا رجلين نافعين في بناء الحضارة .

رجل محترف الثقافة : هو المتعلم أو المتعامل الذي يسخر كل شيء في المجتمع لمصلحته ، ويفعل كل ما في وسعه ليظل في أعلى السلم الاجتماعي ، وهو لأنانيته يحرص على البقاء في صدر المجتمع .

ومن الملاحظ أن الفرد في القرن العشرين يؤثر في مجتمعه بفكره ، وعمله وماله و قد أولى مالك بن نبي الإنسان عناية فائقة جدا و إختصر الحديث عن عنصري التراب و الوقت هما في نظره لا قيمة لهما إلا بالإنسان يقول: « حينما نتكلم عن التراب لا نبحث عن خصائصه وطبيعته ...ولكننا نتكلم عنه من حيث قيمته الاجتماعية ، وهذه القيمة الاجتماعية للتراب مستمدة من قيمة مالكيه»[1].

وعندما يتحرك رجل الفطرة و يأخذ طريقه لكي يصبح رجل حضارة ، فإنه لا زاد له سوى التراب و الوقت وإرادته لتلك الحركة، و هكذا لا يتاح لحضارة في بدنها رأسمال إلا ذلك

[1] – أمنية شيكو ،مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وأرنولد توينبي ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر، د(ط)، د(ت) ، ص: 131

الرجل البسيط الذي تحرك و التراب الذي يمده بقوته الزهيد حتى يصل إلى هدفه و الوقت اللازم لوصوله [1].

و المجتمع الإنساني يمكنه أن يستغني وقتا ما عن مكتسبات الحضارة، ولكنه لا يمكنه أن يتنازل عن هذه العناصر الثلاثة التي تمثل ثروته الأولية دون أن يتنازل في الوقت نفسه عن جوهر حياته الاجتماعية[2] .

وقد تحقق هذا حين كانت الدول المتقاتلة في الحرب الأخيرة لا تقوم خسارتها في الحرب بالذهب و الفضة ، بل بساعات العمل ، أي بتقييم الوقت ، ومن الجهود البشرية و من منتجات التراب ، وهكذا كلما أصبح المكتسب غير كاف أو حالت دون الحصول عليه عقبات وكلما دقت ساعة الخطر ، وأذنت بالرجوع إلى القيم الأساسية تستعيد الإنسانية مع عبقريتها قيمة الأشياء البسيطة التي كونت عظمتها[3] .

و نحن نعلم مسبقا أن أي حضارة معينة تقع بين حدين اثنين : الميلاد والأفول إذن فنحن نملك هنا نقطتين اثنتين من دورتها باعتبارهما ليستا محل نزاع، المنحنى البياني يبدأ بالضرورة من النقطة الأولى في خط صاعد ، ليصل إلى النقطة الثانية في خط نازل ، فما الذي يمكننا أن نضع من طور انتقالي يتوسط هذين الخطين ؟ مشيرا إلى طور وسيط هو : الأوج.

---

[1] – بن نبي مالك ، شروط النهضة، المصدر السابق، ص: 60

[2] – المصدر نفسه ،ص:60

[3] – المصدر نفسه ،ص:60

ولو حاولنا ترجمة هذه الاعتبارات في صورة تخطيطية لحصلنا على التخطيط التالي :

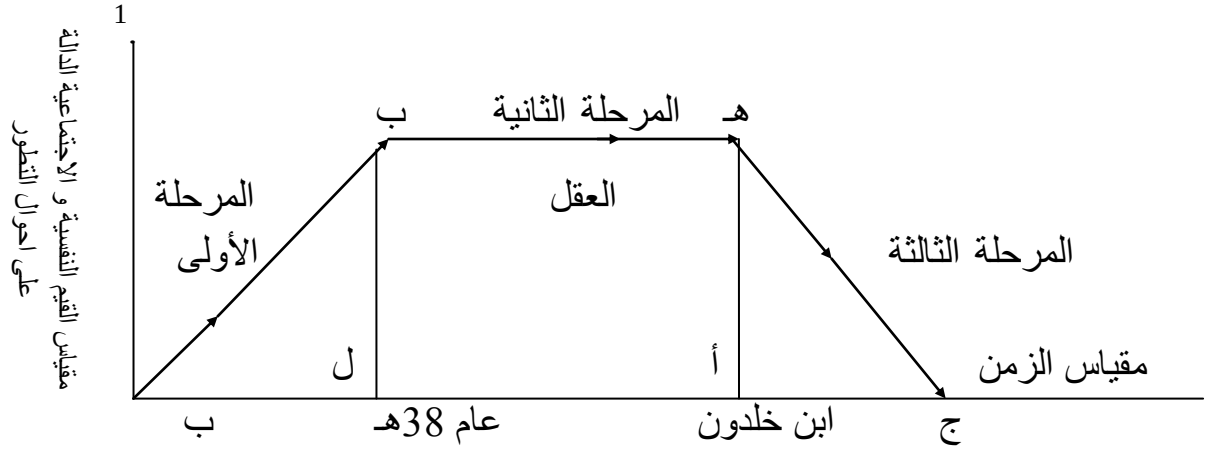


فنحن نملك الآن أمام أنظارنا ،وسيلة نستطيع بها تتبع اطراد حضارة معينة ،بطريقة شاهدة على نحو من الأنحاء ،كما تمكننا من عقد الصلات المشروعة بين العوامل النفسية . والأزمنة المختلفة ، التي تلعب دورا في هذا الاطراد بالضرورة[2].

يضرب مالك بن نبي مثال الحضارة الإسلامية التي انطلقت بكلمة اقرأ في غار حراء وامتدت المرحلة الأولى إلى معركة صفين سنة 38 هـ ،ثم جاءت المرحلة الثانية المتميزة بانفصام بين النظام الخلافي وليد الانبعاث والنمو الروحي والنظام الملكي، ثم جاء منعطف الأفول في زمن ابن خلدون وما بعد الموحدين فدخل بذلك العالم الإسلامي في سباق حضاري طيلة عصور الانحطاط ، ونشأت في أعماقها أسباب التخلف ،يقول مالك بن نبي «وهكذا نكون في الطور إزاء علم بعثته الدوافع النامية عن الفكرة الدينية ، وأشرقت به أنوار

[1] – بن نبي مالك، شروط النهضة، المصدر السابق، ص: 60

[2] – المصدر نفسه ، ص:66

الحضارة غير أنه إذا انتهت دورتها فقد جرفته الفوضى واستحال إلى عدم ،أم إلى علم انتفاعي يعيش أصحابه على حساب الجهل المنتشر»[1].

ولقد أشار مالك بن نبي إلى كيفية تغير الإنسان وكيفية استغلال التراب والوقت بالربط بين عناصر هذه العلاقات الثلاث ، الأفكار ، الأشخاص ، الأشياء ، فعنصر الوقت في البناء الثقافي والحضاري لكيان الإنسان بمثابة الماء للحياة إذ أن الوقت عنصر من عناصر الحضارة التي تغير الإنسان المتحضر ، فهذا الأخير هو الذي يصنع الحضارة ، وهو الذي يقيم المجتمع الراقي بهدف تأمين حياة كريمة ، و الهدف من صنع الحضارة هو تأمين حياة الإنسان وهكذا فالعلاقة جدلية (ديناميكية ) فإن لم يكن الإنسان متحضرا من داخله فلن يقدر على صنع الحضارة. [2]

فحتمية استغلال الوقت و التراب تعني تطوير القوى الفكرية المنتجة و التي من شأنها تغيير عالم الأفكار لدى الإنسان ومن ثمة يحدث التأثير في عالم الأشخاص ككل ويربط عناصر الحضارة بقوى العلم ، لأن الحضارة التي تسمح للعلم بتحطيم القيم المتعارف عليها و لا تثق بقوة العلم في خلق قيم جديدة تدمر نفسها بنفسها[3] ، وان كل عمل حضاري بناء فهو ثمرة جهد الإنسان الفاعل في الحياة إذ أن شبكة علاقات الاجتماعية منسجمة تعمل في نشاط مشترك ولعل ذلك هو المنطق لتفجير الثورة الحضارية التي تنتظرها الإنسانية وهي

[1] – بن نبي مالك ، شروط النهضة،المصدر السابق، ص: 70

[2] – وزارة الثقافة و السياحة ، مجلة الثقافة ، الجزائر العدد91 ، 1986 ،ص: 160

[3] – رينيه دوبو ، إنسانية الإنسان ، تر :نبيل صبحي الطويل ، دار المعارف ،القاهرة ،ط (02) ، 1984 ،ص: 13

تقف على حافة الهاوية التي دفعت لحضارة الاستهلاك الراهنة التي تغذي الجسد وتميت الروح وتجعل من المتعة الحسية العابرة سبيلا إلى إلغاء إنسانية الإنسان، فلا يصبح أساسه من مخرج سوى الانتحار و الفناء الحضاري[1] .

ولكي تستطيع الأمة الإسلامية تجاوز العقبة الحضارية التي تقف في طريقها خلال عصرنا الحديث فلا بد له من يعتمد وضع برنامج لتكوين قيادة فكرية واعدة تقود مسيرتها في المجالات المختلفة فهذه القيادة الفكرية هي كل أمة وعليه تعتمد بعون الله في قيادة السفينة إلى شاطئ الأمان و المعرفة حتى تتبع التاريخ و نهضاته المختلفة، انه من بين مجموع من يعتبر "اللحظة الخاطفة التي تسجل نهاية الظلام في ضميرنا والجمود الفوضوي وعهد التنظيم و التركيب والتوجيه " [2].

إن عظمة مشروع مالك بن نبي من الناحية الفكرية لها دور فعال في جذب المفكرين إلى دراستها و مناقشة أفكارها، من المنكرين فكر وفلسفة ومنهج احد تلامذته المقربين يصف شخصية الرجل ويقول : « قد تسم بفكر حاد وذهن نفاذ، ويعاني ويفكر ففكره فكر حي فعال مركز تغلب عليه الصور العقلية لا الصور اللفظية فيما يتكلم وفيما يكتب وفيما يشعر أن له

[1] – بن نبي مالك، شروط النهضة،المصدر السابق، ص:70

[2] – المصدر نفسه ، ص: 79

رسالة و بالرغم من الصعاب التي واجهته في حياته الشاقة فإنه لم يتزلزل في يوم ولم يشعر بأن عليه أن يترك رسالة ويلقي بعبئها ، وشخصيته أخلاقية ملتزمة بالأخلاق الإسلامية.»[1]

إن أحسن تعريف يقدمه مالك بن نبي للحضارة هو تشبيهه لها بالشمس التي تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب ثم متحولة إلى أفق شعب آخر ،فتعريف مالك بن نبي للحضارة يقدم وفق منهج الإثبات بالخلف كما يقول المناطقة: « فالحضارة عنده لا توضع في مقابل البداوة التي تمثل روافد الحضارة في مجتمعنا العربي الإسلامي و التي نتغنى بمحاسنها في أدبنا كقولنا : وفي البداوة حسن غير مجلوب وهي غير مرادفة لكلمة مدينة»[2]وهي عنده سياج وحصانة للإنسان تحميه من المنهجية كما أن الحضارة عنده توضع في مقابل البدائية لا البداوة ، والحضارة عنده أيضا مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل عضو من أعضائه في كل طور من أطوار وجوده من الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور ، أو ذاك من أطوار نموه [3] ،ونلاحظ أن هذه التعادلية التي يؤكد عليها مالك بن نبي هي أسس الحضارة عنده وقد اعتمد في تعريفه للحضارة على منهجين :

[1] – عمار طالبي ، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة ، مجلة الثقافة الصادرة بالجزائر عن وزارة الاعلام والثقافة العدد 18 – 1973

[2] – المعهد الوطني العالي لأصول الدين ، مالك بن نبي فقيه في الحضارة ، مجلة الموافقات ،العدد الثالث ، 1994 الجزائر ، ص: 191 ، 192

[3] – المرجع نفسه، ص: 192

المنهج التركيبي والمنهج الوظيفي ففي المنهج الوظيفي يعرف الحضارة على أنها «جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد من أعضائه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتقدمه» [1]

أما المنهج التحليلي التركيبي فالمقصود به أن الحضارة تركيب بين عناصر معينة شأنها شأن المواد الكيميائية التي تركب بين العناصر البسيطة لتألف العناصر المركبة : كالمصباح مثلا :نجده يتركب من عمل الإنسان و بشيء من التراب كما أن صناعته استغرقت مدة زمنية،فالعالم الإسلامي يريد أن يجتاز نفس المرحلة بمعنى أنه يريد انجاز مهمة تركيب الحضارة في زمن معين ولذا يجب عليه أن يقتبس من الكيمياوي طريقة ،فهو يحلل أولا المنتجات التي يريد أن يجري عليها بعد ذلك عملية التركيب ،فإذا سلكنا هنا هذا المسلك قررنا أن كل ناتج تنطبق عليه الصيغة التحليلية الأتي

ناتج حضاري = إنسان + تراب * + وقت

ففي المصبح مثلا يوجد الإنسان خلف العملية العلمية و الصناعية التي يعتبر المصباح ثمرتها ، والتراب في عناصره من موصل و عازل وهو يتدخل بعنصره الأول في

[1] – المعهد الوطني العالي لأصول الدين ، مالك بن نبي فقيه في الحضارة ، المرجع السابق، ص: 298

* – تجنبنا قصدا أن نستخدم في هذه المعادلة مصطلح مادة وفضلنا عليه مصطلح تراب والغرض من هذا الاختبار هو تحاشي اللبس في كلمة (مادة :حيث أنها في باب الأخلاق مفهوما مقابلا لكلمة (روح) وتعني في باب العلوم مفهوما

نشأة الإنسان العضوية، والوقت (مناط) يبرز في جميع العمليات البيولوجية و التكنولوجية وهو ينتج المصباح بمساعدة العنصرين الأولين : الإنسان و التراب[1] .

فالصيغة المستخدمة في الحساب فسينتهي حتما إلى ثلاثة أعمدة ذات علاقة وظيفية :

حضارة = إنسان + تراب + وقت اعتراضا هاما هو :

وتحت هذا الشكل تشير الصيغة إلى أن مشكلة الحضارة تنحل إلى ثلاث مشكلات أولية مشكلة الإنسان ، مشكلة التراب ، مشكلة الوقت ، فلكي تقيم بناء الحضارة لا يكون ذلك بان نكدس المنتجات، وإنما بأن نحل هذه المشكلات الثلاثة من أساسها ومع ذلك فإن هذه الصيغة تثير عن التطبيق اعتراضا هاما هو : فإذا كنت الحضارة في مجموعها نتاجا للإنسان والتراب و الوقت فلم لا يوجد هذا النتاج تلقائيا حيثما توفرت هذه العناصر الثلاثة وانه لعجب يزيله اقتباسنا للتعليل الكيميائي

فالماء في الحقيقة نتاج للهيدروجين و الأكسجين وبالرغم من هذا فهما لا يكونانه تلقائيا فقد قالوا إن تركيب الماء يخضع لقانون معين يقتضي تدخل مركب ما ، بدونه لا تتم عملية تكوين الماء [2].

*– ضد مفهوم كلمة طاقة ،وفي الفلسفة نجدها تعطي فكرة هي نقيض ما يطلق عليه اسم المثالية وعلى العكس من ذلك لم يتطور مفهوم لفظ تراب إلا قليلا و احتفظ من حيث معنى المفردة ببساطة جعلته صالحا لان يدل بصورة أكثر تحديدا على هذا الموضوع الاجتماعي على أن هذا المصطلح قد ضم هنا بهذه البساطة مظهرا قانونيا يخص تشريع الأرض في أي بلد ومظهرا فنيا يخص طرق استعماله.

[1] – بن نبي مالك، شروط النهضة، المصدر السابق، ص 45

[2] – المصدر نفسه ص:45

وبالمثل لنا الحق أن نقول :أن هنا ما يطلق عليه مركب الحضارة أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها ببعض ، فكما يدل عليه التحليل التاريخي الآتي مفصلا نجد أن هذا المركب موجود فعلا ، هو الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ فإذا اتضح صدق هذه الاعتبارات عن التفاعل الكيميائي الحيوي وعن ديناميكية الواقع الاجتماعي، كان لنا أن نخطط بطريقة ما مجال تطوره كإطراء مادي نعرف قانونه[1].

وخلاصة القول إن بناء الحضارة عند مالك بن نبي تتكون من الإنسان و التراب و الوقت فيقول مالك بن نبي فلكي نقيم حضارة ما يجب أن نضع رجالا يمشون في التاريخ مستخدمين التراب و الوقت في بناء أهدافهم[2] .

بالنسبة للإنسان يرى مالك بن نبي أن هناك ثلاث مراحل يمر بها الإنسان في صلته بالحضارة وهي ما قبل الحضارة، و أثناءها، وما بعدها ،لذا فهو يحمل بعض الرواسب التي تعتبر مصدرا للصعوبات التي يعانيها ،ولا يمكن علاجه منها إلا بإعادته إلى الحضارة من جديد فحينما ندرس قضية الفرد على الطريقة فإننا نرى أنه مهما تكن مرحلتنا نحن الأمة العربية الحضارة اليوم سواء كانت قبل الحضارة أو بعدها لا بد لنا من تشييد حضارة لأن

[1] – بن نبي مالك، شروط النهضة،المصدر السابق، ص: 46

[2] – المصدر نفسه ، ص: 104

التخطيطات التي دخلت فيها الأمة هي في نهاية التحليل تهدف إلى شيء واحد سواء عبرنا عنه أم لم نعبر هو تكوين حضارة [1]"

ولعل أهم شرط للحضارة في نظر مالك بن نبي هو الإنسان، لذا نجده يركز على ضرورة بناء الفرد إذ أن حركة التاريخ وركوده مرتبطان ارتباطا لزوميا بحركة الجهاز الاجتماعي الأول المتمثل في الإنسان، لذا نجد مالك بن نبي يقول في هذا الصدد فإذا تحرف الإنسان تحرك المجتمع و التاريخ فنرى المجتمع حينا يزخر بوجود النشاط وتزدهر فيه الحضارة وأحيانا ساكنا لا يتحرك يسود الكساد وتغمره الظلمات وهذه المظاهر تعبير عن حركة الإنسان و ركوده [2]".

وعندما نعدل فهمنا لمعنى التاريخ والإنسان وندرك الارتباط بين حركة التاريخ وحركة الإنسان نجد أن هذا الإنسان الذي يحرك التاريخ حينا يكون عاجزا عن ذلك في الكثير من الأحيان ، وهذه العلاقة المضطربة بين الإنسان و التاريخ تدفع بنا إلى البحث من جديد عن ماهية الإنسان حينها سنجد انه « يمثل معادلتين معادلة تمثل جوهره ،إنسانا صنعه من أتقن كل شيء صنعه ،ومعالة ثانية تمثله كائنا اجتماعي يصنعه المجتمع ومن الواضح إن هذه المعادلة الأخيرة هي التي تحدد فعاليته الإنسان». [3]

[1] – بن نبي مالك، تأملات، المصدر السابق ، ص:29

[2] – المصدر نفسه، ص: 129

[3] – بن نبي مالك ، وجهة العالم الإسلامي ،دمشق دار الفكر ،ط(1) ،1986 ، ص:32

وهذا فان أي مشروع نهضوي و أي بناء حضاري يبحث عن حلول للأمة كي تنهض من سباتها و تخرج من الظلامية، والى رحاب الحضارة يجب أن يأخذ بعين الاعتبار المعادلة الاجتماعية للإنسان وخير دليل على ذلك أي المثال الذي قدمه الأستاذ مالك بن نبي عن التجربة الأندلسية عندما استعانت بالتجربة الاقتصادية الاحمانية التي صاغتها الخبير الألماني الدكتور شاخت وحاولت تطبيق نفس المشروع الذي نجح في ألمانيا على يده لكن هذا المشروع وهذه المبادرة لم يكللان بالنجاح و السبب في ذلك حسب مالك بن نبي أنها لم تراعي خصوصية المجتمع الاندونيسي والمرحلة التاريخية لهذا المجتمع التي تخلفت عن ألمانيا، لهذا يجب على أي مبادرة نهضوية أن تضع في الحسبان المعادلة الاجتماعية لإنسان المرحلة بكل أبعاده لهذا يقول مالك بن نبي «انه يجب ألا ننسى أن الإنسان لا يدخل العمليات الاجتماعية بوصفه مادة خاما بل يدخل في صورة معادلة صاغها التاريخ و أودع فيها تجارب سابقة وعادات ثابتة تحدد موقف الفرد أمام المشكلات بما يكون هذا الموقف من قوة أو الرهن من لاهتمام أو التهاون من الضبط أو عدم الضبط »[1].

ومما سبق يؤكد مالك بن نبي أن أي مشروع نهضوي وأي انطلاقة نحو التحضر لا تتحقق بالاعتماد على عالم الأشياء، وبأنها الأساس الحقيقي الذي يجب الاعتماد عليه هو عالم الأنفس لهذا يقول" أن حاجتنا الأولى هي الإنسان الجديد ... الإنسان المتحضر الإنسان الذي يعود إلى التاريخ الذي خرجت منه حضارتنا منذ عهد بعيد وصياغة هذا

[1] – بن نبي مالك، تأملات،المصدر السابق، ص: 182

الجهاز الدقيق الذي يسمى الإنسان لا تتم بمجرد إضافة جديدة إلى معلوماته القديمة لأنه سيبقى هو قديم في عاداته الفكرية وفي مواقفه أمام المشكلات الاجتماعية و فعاليه إزاءها[1] .

لهذا يجب التذكير بان الإنسان يمثل سببا فاعلا وغائبا في الوقت نفسه للحضارة[2] ، إذ أن الحضارة لا تقوم إلا إذا شرع هذا الإنسان في بنائها، وكلما أحكمت قواعد هذا البناء وتجسد في الواقع مشروعه انتفع الإنسان بعطاء حضارته و تبقى مكانته في الوجود و في التاريخ[3].

[1] – بن نبي مالك ، تأملات ،المصدر السابق ، ص: 193

[2] – الخطيب سليمان ،فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي ، دراسة في ضوء الواقع المعاصر ،المرجع السابق، ص: 92

[3] – محمد بغدادي "التربية و الحضارة " ، المرجع السابق ، ص: 78

## المبحث الأول : شروط النهضة عند مالك بن نبي

أهم ما يراه المصلح مالك بن نبي في بحثه عن طبيعة العلاقة بين الفرد المكيف و شبكة العلاقات الاجتماعية و تطور المجتمع لا تفهم إلا في إطار نطاقين مختلفين نطاق النفس الإنسانية من ناحية و نطاق الزمن الاجتماعي من ناحية أخرى[1]

غالبا حث في مشكلات الحضارة ضرورة استخلاص – من التاريخ – السنن التي لا تتغير إذ يقول مالك بن نبي « هذه القواعد هي ثوابت التاريخ ، تلك التي لا يغيرها الزمن على حين يغير المجتمعات لان نهضة المجتمع ما تتم في الظروف العامة نفسها التي تم فيها ميلاده ، كذلك يخضع بناءه وإعادة البناء للقانون نفسه»[2] و لقد فهم الكثير من المصلحين هذه القواعد المستجدة ، وهذا ما جعل الأمة العربية تتصهر في كل ما هو غربي بلا تكيف و لا إبداع في حين أن أي بناء جديد مقطوع الصلة بالتاريخ هو مجرد متعة عقلية فهو إلى الخيال اقرب منه إلى الواقع [3] ، ويجب على أبناء امتنا فهم سنن الحياة بكل جوانبها النفسية الاجتماعية و الطبيعية ، فكل جنب من هذه الجوانب يخضع لقوانين وسنن تحكمه ، إذ لا مجال للنهوض إذا ظلت سلوكاتنا و تصرفاتنا خاضعة للعشوائية و العفوية ، اعتقادا منا إن أحسن النية هو الأساس الوحيد للنجاح و لكنه «مهما يكن فان

---

[1] – بن نبي مالك ، ميلاد مجتمع ، دار الفكر ،دمشق،ط(3)، 1986 ،ص: 75

[2] – المصدر نفسه ، ص:76

[3] – بغدادي محمد ، التربية و الحضارة ، بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي ، عالم الأفكار ،الجزائر، د (ط)، 2006 ، ص: 144

حسن مواهب الإنسان و أطيب نياته لا تمنع من تأثير نوائب الزمن ، الملازمة للقوانين التي تحكم مصيره » [1]

إذ يجب أن نجعل هذا العلم وسيلة لتحقيق النهوض لا وسيلة الزينة و الترف الذي يسبب في تعثر المشروع النهضوي ، و عجز طالبي العلم و الباحثين عن فهم متطلبات الواقع ، إذ يتحول العلم إلى مباريات فكرية للترفيه فتتقطع الصلة بين أبناء المدارس الفكرية و الواقع الاجتماعي الذي يعيشون فيه و ولهذا « فالمسألة ليست مسألة وسائل و إنما مسألة مناهج وأفكار »[2].

كما يجب أن نذكر أن الحياة الاجتماعية تخضع لسنن و قوانين مثل الحياة العضوية فعملية نقل الدم من عضو إلى آخر لا يمكن أن تحقق إلا بشروط دقيقة وموضوعية ،كذلك الأمر بالنسبة للحياة الاجتماعية ، لا تتحقق عملية الاقتباس الحضاري إلا بالاحترام بعض الشروط اللازمة و الخضوع لمعيار نقدي دقيق حتى تتكيف مع الواقع الجديد، و إذا كان البعض يرى أن التغيير عند مالك بن نبي هو في حقيقته عملية إعادة بناء تتأسس على النماذج الأصلية وقيمه المقدسة [3]

[1] – بن نبي مالك ، في مهب المعركة ، دار الفكر ،طبعة (3 )، 1981، ص: 107

[2] – بن نبي مالك ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، تر : بسام بركة واحمد شعبون ، تقديم عمر مستعاوي ، دار الفكر، دمشق ، طبعة (01) ، 1988 ، ص: 133

[3] – بغدادي محمد ،التربية و الحضارة ، المرجع السابق، ص:144

و التفكير في النهضة هو مواجهة لصعوبات الحاضر و التخلص من سلبيات و رواسب الماضي الذي يمثل مرحلة العجز و الانحطاط، إذ يجب التعامل مع الماضي وفق متطلبات الحاضر ، لأن لكل مرحلة تاريخية خصائصها و مميزاتها و التي تتفاعل مع الأحداث التي تحيط بنا و لهذا يقول مالك بن نبي " إن عملية إعادة التنظيم و التوجيه ينبغي أن تكون المهمة الأولى في خطة النهضة الإسلامية".

فلهذا يدعو مالك بن نبي إلى تكامل و تضافر الجهود بين الأفراد إذ يقول « إن علينا أن نقوم بموازاة كل عمل بناء ، فلا تتضارب جهودنا ، وإنما تتضافر من اجل البناء إذا قام كل فرد في حدود مهنته بواجبه على أتمه» [1] وهذا من اجل مواجهة مختلف الصعوبات و التحديات والتصدي لها وذلك بالانسجام المتكامل لجهود جميع أبناء الأمة ، لان مشكلة التخلف تتطلب تضافر جهود جميع الأفراد و جميع الطبقات الاجتماعية و المدارس الفكرية.

ولضمان تواصل عملية البناء لابد من حماية المنجزات التي تم تحقيقها ، والكشف عن كل ما يخرب المجتمع و يعرقل سيره لأنه إذا كانت صناعة التاريخ لا تتم إلا بالعمل المشترك ، الذي يقوم به جميع أفراد المجتمع فإن هذا العمل المشترك يستلزم بالضرورة تنظيم و تنسيق و جمع المعطيات و خاصة جميع الأفكار التي تنهض بالنشاطات الفردية [2].

[1] – بن نبي مالك ، ميلاد مجتمع ، المصدر السابق، ص: 100

[2] – بن نبي مالك ، تأملات ، المصدر السابق ،ص: 173

إذ يجب أن تكون الأعمال في وحدة متكاملة فيصبح « سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد بما في ذلك جهد السائل و الواعي و صاحب الحرفة و التاجر و الطالب و العالم والمرأة و المثقف و الفلاح ، لكي يصنع كل منهما من كل يوم لبنة جديدة في البناء »[1].

فيجب على المجتمع الإسلامي أن يحدد رؤيته للمستقبل ، وتحديد الهدف المنشود من أجل تحقيق غاياته بجهود أفراده المتحدة و المتكاملة وتحقيق مواهبهم و طموحاتهم ، كما يرى مالك بن نبي أن العمل المنهجي لابد أن يأخذ بعين الاعتبار إمكانيات و متطلبات أمتنا كما يجب أن لا نتجاهل الوسط العالمي الذي نعيش فيه ، ومن خلال هذا نستطيع أن نحافظ على استمرارية أمتنا ، كما نضمن السير في الاتجاه الصحيح الذي يحقق التقدم و التطور ، ويحقق المشروع النهضوي فيقول في هذا الصدد:« وهكذا يجب علينا حينما نضع قضية النهضة العربية نصب أعيننا أن ندرس مقتضياتها من جانبين : بنظرة إلى الخارج لنحدد واجباتها نحو العالم ، أي لتحديد شروط انسجامها مع ضروريات السير العام ، ثم بنظرة إلى الداخل نحدد الطاقات التي يمكن توظيفها من اجل المحافظة على البقاء في الداخل ، والمحافظة على الاتجاه الصحيح في الخارج » [2]

[1] – بن نبي مالك ، القضايا الكبرى إشراف ندوة مالك بن نبي ، دار الفكر ، دمشق ،الطبعة (09) ،2009 ،ص: 101

[2]– بن نبي مالك ، تأملات، المصدر السابق ، ص: 179 – 180

ولما وجدنا المجتمع نفسه بين العناصر التقليدية و العناصر المستحدثة المستعارة من المجتمعات المعاصرة له ، فإنه يجب عليه أن يبذل كل الجهد في تحليلها و تكييفها مع متطلبات واقعه ، وهذا عن طريق الإبداع و لن يحدث ما لم يكن هناك فكر نقدي بناء ويقظ ولابد أن يعرف شروط عملية الاستمارة ومدى حاجة المجتمع لهذه العناصر ومدى توافقه مع موروثه الحضاري و كل هذا يستدعي فهم سنن التاريخ وأن المجتمعات مراحل و خصائص ، ولكل مجتمع مرحلته التاريخية التي تختلف عن المجتمع الآخر ، وان أي مشروع نهضوي لن يتحقق له النجاح ما لم ينطلق بالتحديد الأول للمرحلة التاريخية التي يمر بها المجتمع ولهذا فان محاولة حل مشكلاتنا الاجتماعية أن ننظر مكاننا من دورة التاريخ وأن ندرك أوضاعنا ، و ما يعترينا من عوامل الانحطاط ، وما ينطوي عليها من أسباب التقدم فإذا ما حددنا مكاننا من دورة التاريخ سهل علينا أن نعرف عوامل النهضة أو السقوط في حياتنا[1].

كما بين مالك بن نبي أنه يجب النظر إلى المشكلات و التحديات التي يواجهها العالم الإسلامي بالتفاؤل بأن المستقبل سيكون لصالحه ، إذا سلك أفراده الطريق الصحيح، إذ يجب أن يدرك الواقع كما هو، ولا يتفاعل كثيرا حتى لا يتجرع من مرارة النتائج في النهاية، بل يجب التحلي بالواقعية التي تتطلب تشخيص الواقع بموضوعية لأجل النجاح في تحديد طبيعة العلاج الذي يحتاج إليه ،ولهذا يجب أن يكون الواقع الذي يعيش فيه الأرضية

[1] – بن نبي مالك ، شروط النهضة، المصدر السابق، ص: 52

و الأساس الذي ننطلق منه لنصور الحلول الخاصة بنا إما أن نتجاهل واقعنا و نستحضر الحلول إما من الماضي أو عند الآخر الذي يتميز عنا بخصوصياته الثقافية فهذا لا يوصف إلا بالجهد الفكري ، والتخلف الحضاري ، لأن تقدم أي مجتمع لا يكون إلا بالجهود المتكاملة لأفراده ، لذا يقول مالك بن نبي «ينبغي أن نهيئ في بلادنا المحيط اللازم لتطبيق ما نتصوره من حلول لمشكلاتنا الاجتماعية، تلك هي مشكلة الشروط الأولية ، هي مشكلة تثور أمامنا لا بالنسبة للحلول الجاهزة التي نقتبسها من الخارج بل بالنسبة لجميع الحلول التي نتصورها لحل ما يواجه مجتمعنا من مشكلات في مرحلته التاريخية الراهنة»[1]

فلا بد أن نتأمل الصيرورة التاريخية للمجتمعات لكي نكشف عن السنن والقوانين التي يتحرك العالم وفقا لها ، وهي قوانين ثابتة لا تسير وفق مصالح الأفراد ، فمن استطاع فهمها و التكيف معها تمكن من الوصول لأهدافه ، وأما من تجاهلها لا يستطيع تحقيق غاياته مهما حاول جاهدا .

و حينما يدعو بن نبي إلى البحث عن طرق جديدة كبديل للتقليد المشؤوم عن الحضارة الغربية فهو لا يعني إطلاقا الانطواء على الذات ، و الانعزال عن العالم خاصة في رهن العولمة التي فرضت هيمنتها بالقوة فهذا الآخر الذي يجب أن نعيد النظر في تنظيم علاقتنا معه حتى نتمكن من الاستفادة منه دون الذوبان مع الآخر ، و التخلي عن مقوماتنا الحضارية حتى تكون العلاقة علاقة تبادل للمعارف ، لا علاقة تبعية و تقليد الذي يدفع

[1] – بن نبي مالك ، ميلاد مجتمع، المصدر السابق، ص:104

لفقدان الهوية و العجز في الإبداع ، ولهذا يوجه مالك بن نبي نقدا صريحا ، للاتجاهات العلمية و الليبرالية التي طالبت بتقليد منتجات الحضارة الغربية باعتبارها المنهج الأمثل لنقل العالم الإسلامي من التخلف و الانحطاط إلى الحضارة و الازدهار[1] فالنهضة لا تتحقق بالتقليد الأعمى بل تتحقق بإيجاد منهج قادر على أحداث تركيب تفاعلي بين الإنسان و التراب والوقت، فنحن لا نستطيع أن نصنع التاريخ بتقليد خطأ الآخرين في سائر الدروب التي طرقوها بل أن نفتح دربا جديدا ، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بأفكار أصيلة نستجيب لسائر المشكلات على الصعيد الأخلاقي أو على صعيد الأفكار الفعالة لتجابه مشكلات التطور في مجتمع يعيد بناء نفسه[2] .

إذ لابد أن تكون الفكرة مستعارة متناسبة مع نفسية المجتمع وسنه ونموه ، ولا يمكن استعارة فكرة لمجتمع مازال في المرحلة الشيئية لأنه سيتعامل معها كشيء ، وبذلك تفقد كل معنوياتها ، مثلا العبرة من فشل مشاريع العالم الألماني (شاخت) في البلاد الإسلامية .

ورغم ما حققه الغرب من انجازات ما زال يعاني من أزمات متعددة الجوانب و لهذا فهل نموذجه الحضاري قادر على إنقاذ العالم العربي الإسلامي من ورطة التخلف؟ أم سيضيف لجسد هذا المجتمع المريض مرضا جديدا يقضي عليه، و يقول مالك بن نبي في هذا الصدد «مهما كانت وجهة الأمر فان العالم الإسلامي لا يستطيع في غمرة هذه الفوضى أن يحمد

[1] – زكي احمد ، مالك بن نبي و مشكلات الحضارة ، دراسة تحليلية نقدية، دار الصفوة، بيروت ، الطبعة (01) ،1992 ، ص: 75 –76

[2] – بن نبي مالك ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، المصدر السابق، ص: 162

هداه خارج حدوده ، بل يمكنه في كل حال أن يلتمسه في العالم الغربي الذي اقتربت قيامته ، لكن عليه أن يبحث عن طرق جديدة ليكشف عن ينابيع الهامة الخاصة[1] .

كما يجب أن نتجاوز التقليد و نسلك الإبداع ، لأن التقليد لن يضمن مكانتنا بين الآخرين ، لم يسلكه احد من قبلنا و يكون هذا من خلال البحث عما تحتاج إليه الإنسانية و بذلك نكون قد صنعنا مكانا محترما و إذا سألنا أنفسنا ما هو الشيء الذي تحتاج إليه الإنسانية نجد هذه الأخيرة اليوم في علاقتنا التي طفت عليها المصلحة على حساب القيم الأخلاقية أصبحت تشعر بالقلق إزاء هذا الوضع الفاقد لقيم الإنسانية ولذا فهي بحاجة إلى من يدعو إلى تغيير هذا الوضع .

كما يدعو مالك بن نبي أيضا إلى السعي للتجسيد الميداني للأفكار من خلال إنزالها إلى ارض الواقع، فالبحث في مشكلات العالم الإسلامي ليس ترفا فكريا بقدر ما هو مسؤولية كبرى لمن اختار أن يسلك هذا الطريق، فلا ينبغي لمن يكتب أن يكون مجرد آلة كاتبة تنقل لنا نسخة دون أن تقدر للكلمات التي كتبتها أي نتيجة اجتماعية ، أن على من يكتب واجبا إزاء الكلمات التي يكتبها يجب عليه أن يتبعها خارج مكتبته في معركة الحياة والصراع الفكري ، إن يتبعها في عملها في المجتمع[2] .

[1] – بن نبي مالك ، وجهة العالم الإسلامي ، المصدر السابق ، ص: 138

[2] – بن نبي مالك ، في مهب المعركة ، المصدر السابق، ص: 137

كما يدعو مالك بن نبي إلى قراءة اختبار تأملاته في الميدان العملي نظرا للتفاوت المعرفي و الأخلاقي بين البشر و هو يخص تلك النخبة المثقفة التي تقوم بدورها بالتحرر من القيود النفسية و الاجتماعية و في ذلك يقول « ولكي نعطي هذه التأملات قيمة علمية ، يجر أن نعرضها لاختبارات الحياة ، في صورة إجراءات تربوية فعلية ، في المستوى الإسلامي ومن اجل هذا لابد من أن يتولاها مجمع من المتخصصين الخاليين من العقد البيروقراطية التي تنتاب الموظف ومن نظارة رجل السياسة المحدودة حريته الأخلاقية بأوامر ربه أو جماعة ، ومن أخلاق الفوضويين المغرمين بتملق الرأي العام» [1].

إن أساس تماسك البنيان الاجتماعي هو مجموعة المبادئ و القيم الأخلاقية لأجل البناء الحضاري، فالحضارة لن تتم في غياب هذا التماسك و لهذا فان الأخلاق شرط لتنظيم العلاقات الاجتماعية بما يلاءم المصلحة العامة، و للأخلاق إضافة للبعد النفعي بعد روحي هو الدين يهذب و يوظف الدافع الغريزي للتجمع في بوتقة ما يسمى الروح الخلقية ، فانه بذلك يحقق وظيفة الربط التي هي أساس للتقدم الاجتماعي[2] و يؤكد بن نبي إن العلاقات الاجتماعية في حقيقتها ما هي إلا تجسيد للعلاقة الروحية بين الله و الإنسان ، حيث تنشأ في هذا الأخير قيم أخلاقية وهذه بدورها هي التي تحافظ على ترابط العلاقة الاجتماعية و تماسكها و حينما يتحدث مالك بن نبي عن التماسك الاجتماعي لا يفصل في حديثه بين الرجل و المرأة ودور كل منهما في المجتمع ،إذ أن مصدر التمزق الاجتماعي هو استبعاد

[1] – بن نبي مالك ، ميلاد مجتمع ، المصدر السابق، ص: 114

[2] – عبادة عبد اللطيف ، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي ، الجزائر ، ط (01) ،2006، ص: 60

طرق أخرى إضافة إلى أن الحضارة لا تعني تقدم طرف دون آخر « بل هي ظاهرة اجتماعية شاملة و مستوعبة لكافة الطبقات و الشرائح ينتعش فيها كل فرد ، ويحيا حياة سعيدة في عجل و أمان و رفاه» [1]

وهذا يفسر «دخول الدين في الجدلية النفسية و الاجتماعية يمكن لكل مجتمع مهدد بالانهيار أن ينقذ نفسه بهما و هما الدين والحضارة إذ يعتبر الدين الوسيلة الوحيدة لديه ليسير إلى مأمنه ، بل و المأمن إلى سائر المجتمعات فالأمر لا يختلف من مجتمع إلى آخر ، فالمأمن هو الحضارة » [2]

وإذا علمنا بأن الدين الإسلامي مثلا ، يدعو و يلح في دعوته هذه على قيم التسامح الإيحاء ، السلم و العدل ، والمساواة والتعاون و العلم و العمل و العزة وأنه في الوقت نفسه يشدد على كل ما يتنافى مع هذه القيم الأخلاقية السامية، علمنا عندئذ الطبيعة السامية لهذا الدين و تعرفنا على ثقل تأثيره في النفس و المجتمع[3] .

وهذا العلم الجديد لابد أن يحدث تغييرا جذريا في الجانب النفسي للمسلم ، حتى يتخلص من العقد و الرواسب الموروثة عن عهد ما بعد الموحدين ، إذ لا يمكن أن نحقق عودتنا الحضارية بإنسان مثقل برواسب الماضي ، وهذا لا يتم في نظر مالك بن نبي إلا بواسطة علم لم يظهر بعد إذ يقول " وتغيير النفس معناه أقدارها على أن تتجاوز وضعها

[1] – أحمد زكي ، مالك بن نبي ومشكلات الحضارة ، دار الصفوة ،بيروت ، ط (01 )، 1992، ص: 75

[2] – خالد السعد نورة ،التغيير الاجتماعي على فكر مالك بن نبي المرجع السابق، ص: 284

[3] – محمد بغدادي ، التربية و الحضارة ، المرجع السابق، ص:73

المألوف ، وليس هذا من شأن علم الكلام بل هو من شأن منهاج التصوف ، أو بعبارة أدق من شأن علم لم يوضع له اسم بعد ، و يمكن أن نسميه تجديد الصلة بالله[1].

فيجب على المسلمين الشعور بالمسؤولية اتجاه مصير أمتهم ، ويستعملوا العقيدة الإسلامية كأداة اجتماعية من جديد لأجل إصلاح حال الأمة ، ويتبين لنا مما سبق « انه ليس المطلوب الدفاع عن أصالة الإسلام بل مجرد إعادة فعاليته إليه ، بتحريكهم قوة إنتاجية» [2] .

[1] – بن نبي مالك ، وجهة العالم الإسلامي ، المصدر السابق، ص: 54

[2] – بن نبي مالك ، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، المصدر السابق ، ص: 118

## المبحث الثاني : القيمة الاجتماعية و الحضارية للقرآن الكريم

إن عبقرية الإنسان تحمل بالضرورة طابع الأرض ليخضع كل شيء إلى قانون الزمان و المكان ، بينما يتخطى القران دائما نطاق هذا القانون ، وما كان لكتاب بهذا السمو أن يتصور في حدود الأبعاد الضيقة للعبقرية الإنسانية ، ومن المقطوع به أنه لو أتيح لأحد الناس أن يقرأ قراءة واعية يدرك خلالها رحابة موضوعه،فلن يمكنه ان يتصور الذات المحمدية إلا مجرد واسطة لعلم غيبي مطلق [1].

إن ارتيادنا القرآن وتأملنا له مع اختلاف مقاصدنا ومع تعلقنا مقدما بمزاعم المثقفين المحدثين ،يبهرنا بنظام أفكاره الغريب ، ومادتها العجيبة على أن اهتمامنا قد تزايد منذ بعيد بازدياد سياحتنا في هذا العالم الذي يمتاز بنظامه وهندسته وطبيعته الخاصة وهو في هذه المعاني جميعا يشبه دوائر المعارف العلمية أو الكتب التعليمية المعدة لتطبيق خاص ، لقد سقطت مزاعمنا تلقائيا كما تسقط دائما المزاعم أمام ثورات العلم أو انقلابات التاريخ ، وأمام الانتصارات الساحقة للحق و الخير ، ونحن هنا نجد أنفسنا ملزمين (باعتراف ) هو اعتراف مثقف أقبل على القرآن بطوية فطرية ، كما يكتشف فيه (كومة) من المعلومات المحددة كأنه يطلع على احد المجلدات الفنية ،على أن هذا الاعتراف –علاوة على أنه يثقل بتفاصيل شخصية عديمة الجدوى [2].

---

[1] – بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المصدر السابق ، ص: 196

[2] – المصدر نفسه ، ص: 282

فهناك مثلا مشكلة في تاريخ الإنسانية لا تفتأ تواجهها و خاصة في هذه الأيام تلك هي (مشكلة الخمر) ، والحق أنه للمرة الأولى في التاريخ الإنساني ووجهت هذه المشكلة في القران و حلت بطريقة معينة فكيف كان ذلك ؟ ها هو التخطيط النفسي و التشريعي لهذا القرار الذي حدث للمرة الأولى في تشريع احد المجتمعات الإنسانية.

أولا : **↓ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ↑**[1] ، وهنا وقفة أخرى

وثانيا **↓ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ↑**[2]

وهذا هو الموقف الثاني

ثالثا : **↓ يا أيها الذين آمنوا نما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ↑** [3]

هذا هو المسلك الشرعي الذي اتبعه القرآن من اجل أن يواجه مشكلة الخمر الخطيرة و يحلها فما هو اثر هذا التشريع ؟

إن الإحصاء في البلاد الإسلامية حتى المتدهورة منها ، يدلنا على قلة تعاطي الخمر فيها ، بينما تعاني الإنسانية منها – بكل أسف – في البلاد المتحضرة فالعالم

[1] – سورة البقرة، الآية : 219

[2] – سورة النساء، الآية : 43

[3] – سورة المائدة ، الآية : 90

الإسلامي بوجه عام يجهل منذ ثلاثة عشر قرنا هذه النكبة فكيف أحرز تحريم الخمر في القرآن هذا النجاح ؟

إنه المنهج دون أدنى شك ، ذلك الذي عرضناه عرضا تخطيطيا ينتهي بأمر شرعي صارم و الواقع إن النص الأول يثير آثار الخمر في الضمير المسلم فحسب ، وقد كانت هذه الطريقة المتحفظة لإثارة المشكلة و تسجيلها بصورة ما في عداد الهموم الاجتماعية لمجتمع ناشئ ، وبهذه الطريقة أمكن للمشكلة أن تشق طريقها في ضمير الصفوة المختارة في هذا المجتمع الذي يحكمه الدافع الخلقي[1] .

فالموقف الأول سيكون إذن مرحلة (حضارية ) ضرورية ، هي المرحلة النفسية للمشكلة و على أساس هذا البناء الفاصل للضمير المسلم يقوم أن التحديد في الآية الثانية **↓ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ↑**[2] فهنا تحديد لأنه لكي لا نكون سكارى خلال أوقات الصلوات

الخمس ، يجب أن لا نقرب السكر أبدا فهو يهدف إلى أن يطهر مدمني الخمر تدريجيا ، والى ان يرتب خطرا خلقيا ، قبل أن يسن التحريم النهائي وتوضع العقوبة المجازية لارتكاب الجرم المحرم و بهذه الطريقة تحاشى القرآن ان يثير في الوقت نفسه مشكلة اقتصادية هي مشكلة تجارة الخمر ، إذا كانت هذه التجارة قد نمت واتسعت حتى خلع عليها عرب

[1] – بن نبي مالك، الظاهرة القرآنية، المرجع السابق، ص: 298

[2] – سورة النساء ،الآية :43

الجاهلية ألقابا كثيرة يعينون بها مطالبهم من أنواع الخمور ولقد ظلت الكلمة المشهورة لامرئ القيس ، والتي قالها عندما أعلموه بموت أبيه ، شاهدا تاريخيا على إسراف العرب قبل الإسلام في تعاطي الخمر ، قال هذا الشاعر ( اليوم خمر و غدا أمر ).

إن بن نبي يرى أن أساس النهضة هو تمثل العقيدة الإسلامية و ذلك لتحديدها من خلال كونها مصدرا للثقافة الإسلامية ، من خلال ربطها بالمفاهيم المنطلقة من الأساس العقائدي وتحويلها إلى منطق عملي لا عمل منطقي، فانه في هذه الحالة نكون قد صرنا في الاتجاه الصحيح ونحن لسنا في حاجة إلى حديث طويل لكي نؤكد أن الفكر الإسلامي قد وضع حلولا لمشكلات العالم الإسلامي و ما يعانيه إنسان العصر من قضايا ومواقف فالقرآن قد وضع حلولا لها فمن ناحية المشكلات الاجتماعية فقد وضع القرآن لها حلولا حيث شرع الزواج و المعاشرة والطلاق كما وضع تشريعا للمسائل الدنيوية كالبيع و الشراء و التجارة، فالقرآن يضع في أعماق عقيدتنا الاستعدادات التي تؤهلنا لتطبيق المعاملات المتعددة [1] وهو يرى أن من أساس شروط النهضة الإنسان ، الوقت ، التراب ، ولكن لابد من ربطها بالعقيدة الإسلامية فهو يرى « أن السبب في ذلك أن هذه العوامل الثلاث تتطلب إلى جانبها عامل آخر لا غنى عنه ، وهو العامل النفساني ، هذه العامل الذي يصطلح على تسميته بالعقيدة فنحن إذن أمام قضية واضحة وضوحا كاملا ، إن الشروط اللازمة لتكون

[1] – مجلة الشبان المسلمين ،حوار مع مالك بن نبي ،عدد: 161 ،ربيع الأول 1391 هـ ،موافق لـ ماي 1971 م ص: 16 –17

النهضة موجودة بين أيدينا فعندنا أكرم العناصر الموجودة في العالم و عندنا أخصب المساحات الترابية وعندنا الساعات الزمنية الكافية للإبداع و الابتكار» [1].

ثم يتساءل بن نبي عن الشيء الذي ينقص هذه الأمور و يجيب عن ذلك بقوله :«إنه العمل بموجب العقيدة الإسلامية ،فالإسلام وحده هو الذي يمكن أن يعيد المسلمين لقيادة العالم ولكن شريطة أن يعتبروا أن هذه العقيدة رسالة ضرورية لا غنى عنها، ولكن العقيدة لا يمكن أن تحرك الطاقات إلا بقدر تسخيرها لحاجات أبعد و أسمى وأجل من الحياة اليومية و نحن لا نرى للعقيدة الإسلامية هيمنة على طاقاتنا الاجتماعية بينما كانت في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم وسيلة النجاة في الحياة الأخروية و أيضا وسيلة المجد و العز في النهضة في الحياة اليومية» [2] .

ولكي يتحول الإيمان و العقيدة إلى حيز الفعالية في الواقع المعاش ، فانه لابد من ان تدخل ضمن التغيير الداخلي للإنسان المؤثرة على السلوك ،لان أول شيء في هذه الطريق هو تكون الانعكاسات التي تغير سلوك الفرد ، وهذا التغيير النفسي هو الذي يسهل حياة المجتمع و هو أيضا الشرط النفسي في كل تغيير اجتماعي ،أليس ذلك بواضح في قوله تعالى ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[3] وهكذا نرى أن كل ما يغير النفس يغير المجتمع ، من أعظم التغييرات و

[1] – مجلة الشبان المسلمين ،حوار مع مالك بن نبي ،المرجع السابق ، ،ص: 17

[2] – المرجع نفسه ، ص:17

[3] سورة الرعد، الآية: 13

أعمقها في النفس قد وقعت في مراحل التاريخ مع ازدهار العقائد[1] .

و يرى إبن نبي أنه لتحقيق معنى الآية فان على المسلم أن يبلغ الإسلام ،وأن يقدم المبررات الجديدة التي تنتظرها تلك الأرواح التي تتألم لفراغها و حيرتها و تيهها، إذا أراد المسلم ذلك فليرفع مستواه بحيث يستطيع فعلا القيام بهذا الدور إذ بمقدار ما يرتفع إلى مستوى الحضارة بمقدار ما يصبح قادرا على تعميم ذلك الفضل ،الذي أعطاه الله له ، أعني دينه إذ عندها فقط يصبح قادرا أيضا على بلوغ قمم الحقيقة الإسلامية ، واكتشاف قيم الفضيلة الإسلامية و من ثم ينزل إلى هضاب الحضارة المتعطشة فيرويها بالحقيقة الإسلامية و بالهدى و بذلك يضيف إليها بعدا جديدا ، لأن الحضارة العلمانية ،حضارة الصاروخ ،حضارة الإلكترون إكتسبت هذه الأشياء و ضيعت بعدا آخر تشعر بفقدانه و هو بعد السماء[2].

فالذي ينظم سلوك الإنسان هو الشرائع المنبثقة عن العقائد بالشريعة الإسلامية بميزة الوسطية توصل الإنسان إلى نهضة صحيحة، لأن التكليف هو الذي ينظم العلاقة الداخلية بحيث يكون عمل الغرائز واندماجها مطابقا لرسالة المسلم التغيرية في المجتمع[3] فان العقيدة تدخل في تكوين الطاقة النفسية لدى الفرد و في تنظيم الطاقة الحيوية الواقعة في تصرف الفرد ثم توجيهه هذه الطاقة إلى النشاط العملي داخلي المجتمع و التاريخ[4] .

[1] بن نبي مالك ، ميلاد مجتمع، المرجع السابق ، ص: 73

[2] بن نبي مالك، دور المسلم و رسالته، المرجع السابق، ص:34 – 35

[3] بن نبي مالك، ميلاد مجتمع، المرجع نفسه ص: 73

[4] – بن نبي مالك ،ميلاد مجتمع،المصدر السابق ،ص : 68

فالبعد الذي يضيفه الإسلام إلى الحضارة وهو بعد السماء ،عندئذ ترتفع الحضارة إلى مستوى القداسة من الله و منه وحده ولا شيء يعطي القداسة لهذا الوجود غير الله[1]، و إذا حقق المسلم هذا فانه يستطيع أن يشد على أيدي غيره ، ليقدم لهم العلاج الروحي المستمد من القيم السماوية العليا ، كونها تحتوي طاقة ذاتية تؤهلها للنفاذ إلى جوهر المشكلات النفسية للإنسان و يؤكد مالك بن نبي هذا بقوله:« إذا رفعنا المسلم اجتماعيا إلى الحضارة نكون قد خلصنا بذلك الإنسان الغربي من العاهة الأخلاقية التي تفصله من الإنسانية وفتحناه بذلك لحوار مجدي بالنسبة إلى فراغه الروحي[2] ،لهذا فدور المسلم في بداية القرن الواحد والعشرين يجب أن "نتصوره طبقا لضرورات داخلية و ضرورات خارجية ، ضرورات إنشاء و تشييد في الداخل ، و ضرورات اتصال و إشعاع في الخارج » [3]

ففي ضوء القرآن يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته ، كما تحكم الجاذبية المادة ، وتتحكم في تطورها ، و الدين على هذا يبدو كأنه مطبوع في النظام الكوني قانونا خاصا بالفكر ، الذي يطوف في مدارات مختلفة ، من الإسلام الموحد إلى أحط الوثنيات البدائية ، حول مركز واحد ، يخطف سناه الأبصار ، وهو حافل بالأسرار[4] .

وبذلك نجد أن القرآن الكريم يمثل دستورا سماويا لتنظيم الحياة الإجتماعية عند المسلمين فيستحيل قيام حضارة متماسكة الأركان دون الإنطلاق من مبادئه وأحكامه، وهذا

[1] – الخطيب سليمان ، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي، المرجع السابق ، ص: 173 – 174

[2] – عويمر مولود، مالك بن نبي رجل حضارة مسيرته وعطاؤه الفكري ، دار الأمل ، الجزائر ، د(ط) ،2007 ص: 219

[3] – المرجع نفسه ، ص: 172

[4] بن نبي مالك ،الظاهرة القرآنية،المصدر السابق، ص: 300

ما إنتبه إليه مالك بن نبي ،فالعقيدة الإسلامية عنده هي الشرط الأساسي لقيام الحضارة و لنهضة الأمة و يتم ذلك بالعودة إلى منهج السلف الصالح والنهل من منابعه ، ومنطلق ذلك هو التغيير النفسي الذي يمثل العقيدة الإسلامية فهي العلاج الروحي للإنسان ، ولكنها تحتاج للعمل و الفعالية ليتم تطبيقها ، فالقرآن الكريم قدم حلولا للمشكلات المعاصرة و ما تحتاجه هذه العقيدة سر هو التحول إلى حيز الفعالية في الواقع المعيش و على المسلم أن يدرك الرسالة التغييرية التي يحملها للمجتمع .

**المبحث الثالث : مبحث نقدي**

إن وزن المفكر أو الفيلسوف يصنعه فكره و تحدده فلسفته ، ومالك بن نبي واحد من المفكرين والفلاسفة الذين صنعوا مكانتهم بفكرهم المتميز ، فقد ذاع صيته خارج العالم الإسلامي وصار واحدا من كبار قادة الفكر و رواد الفلسفة في عصرنا هذا وقد إعتنى بفكره

وفلسفته العديد من الباحثين ، بعضهم يدرس و يحلل ، وبعضهم ينتقد و يحلل ويدافع لذلك وجب علينا وضع فكر مالك بن نبي في الميزان وكشف النقائص ونحن لا ننكر أنه بنى فلسفة ذات نسقية و تكامل في عناصرها ، مختلفة و متميزة لكنها لا تخلو من النقائص و المآخذ وأهمها :

إن مالك بن نبي لم يتصل بعلماء عصره ليستفيد منهم ورغم إعترافه مثلا بجمعية العلماء الجزائريين إلا أن علاقته بها كانت فاترة و يعترف هو بأنه كان مخطئا في هذا ،فلقد كانت دراسته للإسلام نابعة من قراءاته الشخصية وهي قليلة إذا قيست بقراءاته في الفكر الغربي و هذا ما جعله يخطئ في أمور كثيرة في الفقه و الأحكام أو في النظرة لبعض جوانب التاريخ الإسلامي فمن رموز الثقافة عنده ، إبن رشد ، الفرابي ...إلخ وهذا يدل على ضعف ثقافته الشرعية .

إن فكرة الدورة الحضارية إعترض عليها ،فإنه ليس هناك ميلاد و شباب و شيخوخة لا في حياة الدول ولا في حياة الحضارات بل هناك إبطاء أو توقف في المسيرة الحضارية مرده عوامل قد يكون من أبرزها سوء أنظمة الحكم أو الممارسات السيئة للحكام أو قيام الحكم على أساس أو ممارسات مرفوضة و حدوث تنافر بين الحكام و الرعية من شأنه أن يؤدي إلى توقف الحوار و التفاعل الحيوي و بالتالي تضاؤل المعطيات الحضارية أو جفافها شيئا فشيئا[1].

[1]– القريشي علي ،التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي ،دار الزهراء ،ط (1) ، 1989 ، ص: 296 – 297

ثم إن تطبيق مالك بن نبي للتفسير الدوري للحضارة قد إقتصر على حضارتين فقط من الحضارة المسيحية و الإسلامية فكيف يصح أن تعمم نظرية الدورة و مصيرها قانونا يجري على كل الحضارات الإنسانية الأخرى ؟

أما فيما يراه من أن سقوط الحضارة الإسلامية كان بسقوط دولة الموحدين فإن الدولة العثمانية إستأنفت القوة الإسلامية بدولة أخرى جامعة كبرى كانت أعظم من دولة الموحدين وأكبر فلماذا ينسى أستاذنا مالك ذلك ؟

ولقد وقع مالك بن نبي في خطأ حيث أعطى التراب قيمة زائدة عن حدوده إذ وضع المعادلة : إنسان + تراب + وقت = حضارة

فقد يكون : إنسان + تراب + وقت = دمار

و الوضع الصحيح للمعادلة هو : إنسان متوازن = حضارة [1]

نستطيع أيضا القول أن الإنسان الوحيد الذي يمكنه أن يحقق التوازن هو المسلم فنصنع معادلة كالأتي : الحضارة = المسلم الملتزم أو المسلم الواعي .

و يرى بن نبي أن الحضارة الإسلامية تقوم على أساس التوازن بين العقل و الروح و بين الروح والجسد، وبين الدنيا و الآخرة، فمالك بن نبي يرى التوازن فقط عندما تسيطر

[1]– توبة غازي ، دراسة في الفكر الإسلامي المعاصر ، المرجع السابق ص: 10

الروح على العقل و الجسد ثم بعد ذلك لا يوجد توازن و ذلك عندما يسيطر العقل على الروح ، ثم عندما تسيطر الغرائز حيث تؤدي إلى دمار الحضارة .

ويؤخذ على مالك بن نبي إسرافه في إستخدام المعادلات الرياضية و الفلسفية و الفكرية و الإطلاق على مدنيات العالم بأنها حضارات ، فقد تكلم عن الاتحاد السوفييتي الذي كان يمثل في وقته قوة عظمى على أنه شكلا لحضارة .

وقد حاول بن نبي إقحام الفكرة الدينية في تشكيل ما يسمى بالحضارات الغربية بعض الوقت عن كونها صحيحة أو خاطئة أو أنها فلسفات غربية كالهندوسية أو البوذية وغيرها فهو يرى أن أي فكرة دينية بغض النظر عن صحتها تصلح كمركب للحضارة .

فيرى الباحث أن مالك بن نبي أراد أن يعمم فكرته بتأثير الجانب الروحي على بناء الحضارات فوقع في خطأ كبير حيث سوى بين الدين الحق و باقي الأديان المحرفة من يهودية و نصرانية ، بل و أضاف لها الأفكار الجاهلية الكافرة من بوذية وبراهمية و هندوسية فكيف يسوي بينها وبين الإسلام الذي جاء من عند الله عز وجل .

اليوم فيه مساجد كثيرة فهل حقق المفهوم الحضاري لا طبعا، لأنه يشمل الجانب العملي أيضا المنبثق عن الجانب الإسلامي على أساس أن الحضارة فقط هي الإسلام .

و لا يخفى عن الباحث في فكر مالك بن نبي أن مالكا كان مقلدا للمفكرين الأوربيين الذي نقدوا حضارتهم من خلال نقدهم للديانة المسيحية ، التي وقعت حجرة عثرة أمام العقل

و إبداعاته العلمية ، ولذا إبتعد مالك عن الصواب ، وذلك لأن المسيحية ليس لها أي دور في حضارة الغرب اليوم إذا أراد مالك أن يسميها حضارة مع أن الصواب أن يطلق عليها مدنية وقد أخطأ عندما حلل مفهوم الحضارة الإسلامية معتمدا على أفكار فلاسفة الغرب كفرويد و نيتشه الذين حاربوا دينهم الذي يحارب العلم يقول:« إعتمدت على آراء لكسر لنج التي إستخلصها من دورة الفكرة المسيحية في تركيب الحضارة »[1]

والأصل أن يعتمد على القرآن الكريم في تحليلاته لمفهوم الحضارة لأن ما يقال عن الدين الباطل لا يقال عن الدين الحق فالإسلام حث على العلم و التعلم من أول سورة نزلت.

وفي دراسة مالك بن نبي للذات المحمدية نجد أنه قد وقع في خطأ كبير حيث وصف ما حدث من فتور الوحي على أساس أنه أزمة نفسية ألمت بذات الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك نتيجة تأثر مالك بعلم النفس الغربي و إعتماده عليه في أغلب تحليلاته و كان أجدر به العودة إلى المصادر الإسلامية كقوله تعالى ↓ **والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى** ↑[2]

وقد ذكرت كتب الحديث أن الفتور كان خارجيا و ليس متعلقا بذات الرسول صلى الله عليه وسلم ،فاستخدام مالك لفظ الأزمة في حق الرسول صلى الله عليه وسلم لا يجوز لأن

[1] – بن نبي مالك ، شروط النهضة ، المصدر السابق ، ص :12

[2] – سورة الضحى ، الآية : 01– 04

حالة الرسول صلى الله عليه وسلم ليست حالة نفسية بل حالة بحث عن الحقيقة أي حالة نفس سوية.

كما أن مالك بن نبي قد أصاب عندما أرجع واقع العالم الإسلامي المهلل المضطرب إلى الضعف بل إلى العجز الفكري ،وأن مشكلة العالم الإسلامي هي في الذات وذلك لأن الإنسان يتميز بعقله و سلوكه مرتبط بمفاهيمه عن الأشياء لكنه و في كلامه عن النهضة لم يكن متأثرا بالنظرة الانفصالية بين العقل و الغريزة و الروح ، بل حاول إدخال العقيدة كعامل في المفهوم التغييري ، ومع هذا الوضوح في الفهم لديه إلا أنه لم يحول هو بذاته هذا الفكر النظري إلى واقع حركي يتبناه و هذا واضح من عدم انخراطه في أي وجود جماعي يحقق من خلاله أفكاره .

ولقد اعترف مالك بفضل ابن خلدون في استنباط فكرة الدورة الحضارية بقوله« كان ابن خلدون وحده أول من استنبط فكرة "الدورة " في نظريته عن الأجيال الثلاثة ... فإنها تدفعنا إلى تأكيد الجانب الانتقالي في الحضارة أي أننا لا نرى فيها سوى تعاقب ظواهر عضوية منها بالضرورة في مجالها المعين بداية ونهاية »[1] .

وقد أخذ مالك بهذه الفكرة و أقر بنظرية الدورة الحضارية و اعتمد على حدي الميلاد و الأفول في رسم التشكيل البياني لخطته الحضارية وأدخل ذلك ضمن ثلاثة أطوار حياتية

[1] – بن نبي مالك ، شروط النهضة ،المصدر السابق ص: 19

، طور الروح ، طور العقل وطور الغريزة ، وهو بذلك كان مقلدا لابن خلدون أي صاغ نظرية إبن خلدون بألفاظ معاصرة .

وقد تأثر بن نبي بمفهوم العصبية أيضا عند إبن خلدون وذكر أنها لها دور بقوله « الرابطة القبلية قد ظلت و حدها الرابطة الوثيقة التي توحد بين الرجال فيما يشبه وحدة رسالة ، غير أن هذه الرابطة لم تكن بكافية لتأهيل شعب ، ليؤدي رسالة تاريخية»[1] فإبن خلدون بالذات يظل أستاذ مالك بن نبي فقد صاغ ألفاظه لتواكب العصر الحديث في مفهومه الحضاري .

إن الفكر الإصلاحي عند مالك بن نبي في نظر الباحثين فكر تبريري و ترميمي و ليس فكرا يوجد ويضع « المجتمع المسلم على أنقاض الواقع الفاسد من خلال الأساليب التي قدمها الرسول صلى الله عليه وسلم مع صحابته في بناء المجتمع الإسلامي الأول»[2]

[1] – بن نبي مالك ، شروط النهضة ، المصدر نفسه ، ص: 20

[2] – توبة غازي ، دراسة في الفكر الإسلامي المعاصر ، المرجع السابق ، ص:11

## خاتمة

الحمد لله الذي أعانني على إتمام هذا البحث ،أرجو أن يكون عملي هذا خالصا لوجه الله الكريم وأن يكون خطوة في السير على المنهج العلمي الصحيح و في الختام أشير إلى أهم النتائج التي توصلت إليها :

أولها أن البناء الحضاري عند مالك بن نبي لم يكن قائما على النزعة الإنفعالية التي تتجاهل إمكانيات الأمة بسبب الإنبهار بمنجزات الغير ، إنما كانت نظريته قائمة على التحليل العلمي و العقلاني لظاهرة التخلف الحضاري الذي تعيشه الأمة.

فبالرغم من وجود النية الخالصة للتغيير إلا أنها ليست شرطا كافيا بل يحتاج الأمر معرفة بسنن التغيير، و بناء علاقات مستمدة من البعد الديني و ذلك عن طريق تأسيس جديد يسميه مالك بن نبي بتجديد الصلة بالله من أجل الفعالية الإجتماعية للعقيدة بالعودة إلى القرآن الكريم ليكون منهجا علميا في حياة المسلم، فهو عبارة عن الطاقة الحيوية والقوة الفاعلة ليغير القيم من الحالة الفطرية وهي حالة الإنسان الطبيعي إلى حالة نفسية ، إجتماعية ، حضارية ، فهو ينير السبيل و يدفع بذلك عجلة التاريخ و به يكون للإنسان روح متأججة كلها إيمان تسمو نحو المثل العليا ، وتبذل في تحقيق مشاريعها جهودا مضاعفة خارقة فتنفتح القرائح و يحكم العقول و يقوى الشعور فيكون المجتمع متماسكا مترابطا .

## خاتمة

ومن هنا فإن نهضة الحضارة العربية الإسلامية مرهونة باكتساب أهلها للإيمان وإتباع العقيدة منهجا و سلوكا للفرد و الجماعة ، وذلك لأن العودة للقرآن الكريم تعيد تشكيل العقل و ذلك يتم بجعل النص الديني في خدمة العلم و التقدم بالمعنى العام ، فأساس المرض والضعف الحضاري هو الخلل العقائدي فهو الذي أدى لضعف المسلمين أمام الحضارة الغربية أي ذلك الفاصل بين العقيدة و السلوك فإذا نظرنا إلى فكرة العقيدة ذاتها وهي التي نعرف تأثيرها العميق في ضمير المسلمين الأوائل هذه العقيدة لم تعد لها اليوم التأثير نفسه وقوة التوجيه لسلوكنا الفردي ولأعمالنا وأفكارنا و مشاعرنا فالبعض يكرر " إننا لم نعد مسلمين إلا بالشهادة " فهذه هي الحقيقة وذلك نتيجة ما نراه في عدم فعالية العقيدة فمشكلة العالم الإسلامي هي في الذات، ولذلك فعلاج المسلمين اليوم لا يكون إلا بإعادة القاعدة التي يسير عليها التفكير عن طريق بناء طريقة تفكير تعتمد على الأصول التي اعتمد عليها السلف الصالح، والاعتناء بالجانب العملي واقتباس نفس منهج التفكير و العمل التي اعتمد عليها الجيل الإسلامي الأول من أجل استئناف الحياة الإسلامية من جديد.

فالدين هو الأساس الأخلاقي الضروري للنهضة لأنه منهج تغيير وهذا واضح في الإسلام بحيث أن التغيير مرتبط بالفكر الذي له ارتباط بالمنحى الثقافي المؤسس على أصول العقيدة الإسلامية.

**خاتمة**

فالقرآن هو الذي يعيد المسلمين لقيادة العالم و ذلك يتم بتحويل العقيدة أو الإيمان إلى حيز الفعالية، فتدخل ضمن التغيير الداخلي للإنسان أي التغيير النفسي هو الذي يسهل حياة المجتمع فهي تدخل في تكوين الطاقة النفسية لدى الفرد.

فالعالم كله يعيش في حالة يطلق عليها بن نبي حالة طوارئ ،فالبشرية في شقاء مادي و روحي وهذه الحالة تتطلب إنقاذ الذات أولا ثم إنقاذ الآخرين وهذه هي رسالة المسلم تحديدا ، والمسلم بفضل إسلامه لا غير يستطيع اليوم إنقاذ الإنسانية المتورطة في الضياع رغم علمها ،ولكي يقوم برسالته لابد من تحقيق الإقناع لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، وذلك بأن يقتنع أن له رسالة لابد من تبليغها ثم يقوم بعد ذلك بإقناع الآخرين وهذا لن يتوفر إلا بتغيير داخلي للمسلم.

ونتمنى فعلا أن تأخذ آراء وأفكار هذا المفكر و الفيلسوف مكانة هامة في الجزائر و في العالم العربي للاستفادة منها فمالك بن نبي له آراء تربوية وفكرية حبذا لو درست من طرف المسؤولين عن التعليم في الجزائر، وحبذا كانت هناك محاولة و لو بسيطة لتطبيقها على أرض الواقع في بحث بعنوان " المفهوم التربوي عند مالك بن نبي بين النظرية والتطبيق" وكذلك بالنسبة لموقفه من المسيحية و اليهودية ، حبذا لو درس في بحث مستقل بعنوان " موقف مالك بن نبي من المسيحية و اليهودية" فأفكار مالك بن نبي لا تزال تحتاج لدراسات عميقة فالمتصفح لفكر مالك بن نبي ولنظريته في الحضارة و التجديد تكتشف عالما فكريا فلسفيا مليئا بالمفاهيم وغنيا بالتصورات و فريدا من نوعه ، خاصة فيما يتعلق

## خاتمة

بالحضارة و عناصرها وشروطها ،فكان مشروعه خطة للنهضة وللصحوة ونموذجا من نماذج الفكر لا يستهان به للتجديد وللدخول إلى التاريخ ،واحتلال أمة الإسلام مكانتها اللائقة بها إذ كان فكر مالك بن نبي يتميز بالقوة و المتانة نظرا لصلته المباشرة ، بالواقع المتعلق بالعالم الإسلامي المعاصر فقد أخذ بالدين و العلم والتاريخ ، فما أحوج العالم الإسلامي المعاصر إلى المشروع للتجديد و لبلوغ السمو الروحي والأخلاقي ، ذلك هو عين التحضر و قمته وهو مبتغى الإسلام ومقصده فالحضارة هي التمكن لقيم و مبادئ الإسلام.

- القرآن الكريم
- الحديث النبوي الشريف

**قائمة المصادر**


1. مالك بن نبي "الظاهرة القرآنية "ترجمة عبد الصبور شاهين – دار الفكر – دمشق ط 04 ، 1987
2. مالك بن نبي ،"تأملات "إشراف ندوة مالك بن نبي ، دار الفكر ، دمشق ،ط 05 ، 1991
3. مالك بن نبي ، دور المسلم في الثلث الأخير من القرن العشرين ، دار الفكر ،دمشق سوريا ، ط(2) ، 1978
4. مالك بن نبي ،"شروط النهضة "ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين – دار الفكر –دمشق ط03 ، 1969
5. مالك بن نبي ،"في مهب المعركة " سوريا ، دمشق ،دار الفكر ط 03 ، 1981
6. مالك بن نبي ،"مشكلة الثقافة "ترجمة عبد الصبور شاهين – دار الفكر – دمشق ط 04 ، 1984
7. مالك بن نبي ،"من اجل التغيير "ترجمة بسام بركة ،عمر مسقاوي – دار الفكر – دمشق ط01 ، 1969
8. مالك بن نبي ،"ميلاد مجتمع " – دار الفكر – دمشق ط 03 ، 1986
9. مالك بن نبي ،"مجالس دمشق "– دار الفكر – دمشق ط 01 ، 2005
10. مالك بن نبي ،"مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي "ترجمة بسام بركة واحمد شعبو –إشراف وتقديم عمر مسقاوي ، –دار الفكر –دمشق ط 01 ، 1988

11 . مالك بن نبي ، "وجهة العالم الإسلامي "ترجمة عبد الصبور شاهين –دار الفكر –دمشق ط01 ، 1986

## قائمة المراجع

1–احمد السحمراني ، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا ، ط 02 ، دار النفائس ، بيروت 1986

2–أحمد زكي ، مالك بن نبي و مشكلات الحضارة ، دراسة تحليلية نقدية ، دار الصفوة بيروت ، ط(1) ، 1992

3–ارنيه دوبو "إنسانية الإنسان " ترجمة : نبيل صبحي الطويل ، دار المعارف ، القاهرة ط 02 ، 1984

4–ابن كثير "معجزات النبي " دار الغد الجديد ، ط 01 القاهرة 2006

5–آمنة تشيكو "مفهوم الحضارة عند مالك بن نبي وآرلنولد توينبي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، دون طبعة ، الجزائر 1989

6–أمين احمد "فجر الإسلام " دار الأصالة ، ط 01 ، الجزائر 2010

7–بوعرفة عبد القادر ، الإنسان المستلقي في فكر مالك بن نبي ، الجزائر ،دار الغرب د(ط) ، د(ت) ، ص :11

8–توبة غازي ، دراسة الفكر الإسلامي المعاصر ، دراسة و تقويم ، دار القلم ، د(ط) 1977،

9–حسن العكريمي "التبيان لمعرفة الفصل بين معاني الكفر و الإيمان " دار الهدى الجزائر (دون طبعة و دون سنة )

10– الخطيب سليمان ، فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي ، المؤسسة الجامعية للنشر بيروت ، ط(1) ، 1993

11- 1.. عبد الرحمان بن زيد الزنيدي ،السلفية وقضايا العصر،دار اشبيليا ، ط( 01)، 1998

12- عبد الرحمان محمد عبد الرحمان ، أسلوب القرآن الكريم في دعوة أهل الكتاب دار اليقين ، ط 01 ، 2009

13- الصديق محمد الصالح ، البيان في علوم القران المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1994

14- الطيب برغوث ، "موقع المسألة الثقافية من إستراتيجية التجديد الحضاري عند مالك بن نبي " دار قرطبة للنشر و الإعلام ، الجزائر ، ط 02 ، 2004

15- عبادة عبد اللطيف ، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي ، عالم الأفكار الجزائر ط(1) ، 2006 .

16- عبد الجليل مرتاض القاضي " العقيدة الميسرة من الكتاب و السنة المطهرة جامعة القصيم قسم العقيدة ، ط 01 ، 2006

17- عبد اللطيف عبادة "صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي " الجزائر عالم الأفكار ، ط (د.ت)

18- القريشي علي ، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي ، دار الزهراء ،ط(1) 1989

19- محمد الغزالي "عقيدة المسلم " دار الهناء ، الجزائر ، دون طبعة ودون سنة

20- محمد بغدادي ، "التربية و الحضارة " بحث في مفهوم التربية و علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي ، الجزائر ، عالم الأفكار ، بدون طبعة 2006

21- نورة السعد ، "التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي " الرباط ، السعودية 1997

## جـ - المجلات والدوريات

1-شريط الأخضر ، فلسفة عالم الأشخاص و البناء الحضاري عند مالك بن نبي ، بونة للبحوث و الدراسات ،مجلة دورية محكمة تعني بالبحوث و الدراسات التراثية و الأدبية و اللغوية العدد 4 ، 5 يونيو 2006 ، عمار طالبي ، مالك بن نبي و مشكلات الحضارة ، مجلة الثقافة الصادرة بالجزائر ، عن وزارة الإعلام و الثقافة عدد 18 ، 1973

2-مجلة الشبان المسلمين / حوار مع مالك بن نبي ، عدد 161 ربيع الأول 1391 هـ الموافق لـ ماي 1971

3-المعهد الوطني العالي لأصول الدين ، مالك بن نبي فقيه الحضارة الموافقات مجلة جامعية تعتني بالبحوث و الدراسات الكلامية ، عدد 03 ، الجزائر 1994

4-وزارة الحج والأوقاف و التضامن الإسلامي ، مجلة إسلامية شهيرة بمكة المكرمة الجزء الأول ،1985

5-وزارة الثقافة و السياحة ، مجلة الثقافة ، عدد 91 ، الجزائر 1986

**المعاجم**

1-جمال الدين ابن منظور ،معجم لسان العرب ، دار الفكر ، بيروت ، ج 4 ، د(ط)، 1997